العنوان:	مصادر ابن حزم في نقد عقائد المسيحية الكبرى
المصدر:	مجلة الدهاق
الناشر:	الحسين حران
المؤلف الرئيسي:	الكلام، يوسف
المجلد/العدد:	ع1
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2019
الشهر:	مايو
الصفحات:	73 - 116
رقم MD:	1470952
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	الديانة المسيحية، العقائد الدينية، علم مقارنة الأديان، ابن حزم، علي محمد بن أحمد بن سعيد، ت. 456 هـ.
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/1470952

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA
الكلام، يوسف. (2019). مصادر ابن حزم في نقد عقائد المسيحية الكبرى.مجلة الدهاق، ع1، 73 - 116. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/1470952

إسلوب MLA
الكلام، يوسف. "مصادر ابن حزم في نقد عقائد المسيحية الكبرى."مجلة الدهاق ع1 (2019): 73 - 116. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/1470952

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

مصادر ابن حزم في نقد عقائد المسيحية الكبرى

يوسف الكلام
(أستاذ مقارنة الأديان / جامعة القرويين)

1- مقدمة

اهتم علماء الإسلام منذ العصور الأولى بالأديان المخالفة للإسلام وبالأخص بالدينين اليهودي والمسيحي، ومما لا شك فيه، أن اهتمامهم هذا نابع من تعاليم القرآن الكريم الذي بنى أسسه، وأرسى قواعده، على منهج نقد الأديان المختلفة، محاولا بيان تهافت عقائدها المبنية على الظن والتخمين، المبتعدة بسبب التحريف والتبديل الذي لحقها، عن الأصل الإلهي، مع التركيز على أن ما جاء به من بدائل عقائدية مبنية على العلم والعقل.

ولم يكن اهتمام المسلمين بالأديان، سواء من حيث تاريخُها أو عقائدُها أو شعائرُها، مقصورا على فئة معينة منهم، أو على مجال معين من مجالات المعرفة الإسلامية، بل إن المتتبع لسير العلماء المسلمين ومؤلفاتهم، يجد أن هذا العلم حاضر لديهم جميعا، متكلمين كانوا، أو أصوليين أو فقهاء، أو محدثين، أو مؤرخين، أمثال القاضي عبد الجبار، وأبي الحسن الأشعري، وابن حزم، والباجي، والرازي، والجويني، والغزالي وأبي العباس القرطبي، وابن قتيبة، والمسعودي وغيرهم.

وسنقف في هذا البحث مع رائد في علم مقارنة الأديان لاتصافه بالمعرفة التامة بهذا العلم، ولحرصه على إنصاف خصمه وإعطائه حقه في الاختلاف والدفاع عن توجهاته العقدية والفكرية، قبل توجيه النقد لأفكاره ومعتقداته، هذا الرجل هو الإمام أبو محمد علي ابن حزم الظاهري الأندلسي القرطبي

(تـ456هـ)، الذي لا يستطيع مهتم بعلم مقارنة الأديان وتاريخها أن ينكر فضله بشأن هذا العلم موضوعا ومنهجا، كما لا يمكن لباحث أن يدخل غمار هذا المجال المعرفي ما لم يقف على ما كتبه هذا الرجل العظيم، خصوصا مؤلفه حول عقائد اليهود والنصارى وغيرهم من الملل المسمى بالفَصل في الملل والأهواء والنحل.

إن المطلع على مقدمة الكتاب المذكور، يتبين له أن ابن حزم كان واضحا في المنهج الذي سيتبعه في نقد العقائد والملل المختلفة، إذ لم ينف اهتمام من سبقه من العلماء بهذا العلم، لكنه عاب عليهم المنهج الذي اتبعوه، يقول ابن حزم: "الحمد لله كثيرا وصلى الله على محمد عبده ورسوله خاتم أنبيائه بكرة وأصيلا أما بعد فان كثيرا من الناس كتبوا في افتراق الناس في دياناتهم ومقالاتهم كتبا كثيرة جدا فبعض أطال وأسهب وأكثر وهجر واستعمل الأغاليط والشغب فكان ذلك شاغلا عن الفهم قاطعا دون العلم وبعض أحذف وقصر وقلل واختصر وأضرب عن كثير من قوى معارضات أصحاب المقالات فكان في ذلك غير منصف لنفسه في أن يرضى لها بالغبن في الإبانة وظالما لخصمه في أن لم يوفه حق اعتراضه وباخسا حق من قرأ كتابه إذا لم يغنه عن غيره وكلهم إلا تحلة القسم عقد كلامه تعقيدا يتعذر فهمه على كثير من أهل الفهم وحلق على المعاني من بعد حتى صار ينسي آخر كلامه أوله وأكثر هذا منهم ستائر دون فساد معانيهم فكان هذا منهم غير محمود في عاجله وآجله، قال أبو محمد رضي الله عنه فجمعنا كتابنا هذا مع استخارتنا الله عز وجل في جمعه وقصدنا به قصد إيراد البراهين المنتجة عن المقدمات الحسية أو الراجعة إلى الحس من قرب أو من بعد على حسب قيام البراهين التي لا تخون أصلا مخرجها إلى ما أخرجت له وألا يصح منه إلا ما صححت البراهين المذكورة فقط إذ ليس الحق إلا ذلك وبالغنا في بيان اللفظ وترك التعقيد راجين من الله تعالى على ذلك الأجر الجزيل وهو تعالى ولي من تولاه ومعطي من استعطاه لا إله إلا هو وحسبنا الله ونعم الوكيل"[1].

1 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ص: 35–36

لقد ركز ابن حزم في مقدمته هاته على أمرين اثنين هما:

أولا بيان خطأ من سبقه من العلماء الذين كتبوا في افتراق الناس في ديانتهم؛ ذلك أن بعضهم أطال وأسهب وأكثر وهجر واستعمل الأغاليط والشغب مما حال بينه وبين الفهم الصحيح لهذه الديانات والمقالات فكان متقولا عليهم مفتريا، وأما البعض الثاني فأضرب عن كثير من قوى معارضات الخصم فكان غير منصف لنفسه، وفي الآن نفسه ظالما لخصمه باخسا حق قارئه.

ثانيا بيانه للمنهج الذي سيتبعه في كتابه المتمثل في إيراد البراهين والحجج الدامغة، واستعمال الألفاظ البينة وترك التعقيد.

من خلال هذين الأمرين الذين ركز عليهما ابن حزم في مقدمة كتابه، نستخلص بعض القواعد الأساسية التي يقوم عليها علم مقارنة الأديان عند ابن حزم، وهي قواعد كما سنرى تبقى قائمة وصالحة في كل مكان وزمان.

القاعدة الأولى: وهي قاعدة عامة تخص البحث والتأليف في كل المجالات العلمية وهي ضرورة الاطلاع على ما كتب الناس من قبل في المجال الذي نريد التأليف والكتابة فيه، وهو ما يعرف اليوم في مجال البحث العلمي بالدراسات السابقة، وتقويمها من حيث الموضوع ومن حيث المنهج، ثم بعد ذلك بيان ما سيضيفه الباحث في بحثه موضوعا ومنهجا أيضا.

القاعدة الثانية: الفهم الصحيح للديانة موضوع الدرس، من خلال الرجوع إلى المصادر الأساسية المعتمدة عند معتنقي الديانة بلغاتها الأصلية، وعدم الاقتصار على ما كُتب أو قيل عنها.

القاعدة الثالثة اجتناب الأغاليط والمغالطات والسفططة، لأن القصد من دراسة الأديان هو بيان الحقيقة وليس الانتصار والتغلب على الخصم، وضرورة الرجوع إلى الحق وإن كان مع الخصم.

القاعدة الرابعة الوقوف مع اعتراضات الطرف الآخر كلِّها، والرد عليها بالأدلة العقلية، وعدم الاقتصار على الضعيف منها والسكوت عن قويِّها، لأن عالم مقارنة الأديان الحقيقي هو الذي يبذل الجهد من أجل التدليل والبرهنة على بطلان ادعاءات الخصم القوية قبل الضعيفة.

القاعدة الخامسة: عدم اللجوء إلى العبارات والمصطلحات غير المفهومة عند المخالف، أو عند غيره، وضرورة الابتعاد عن التعقيد، لأن الهدف ليس هو التغلب على الخصم، وإنما إيصال الحقيقة لجميع الناس باختلاف درجات فهمهم وعلمهم.

القاعدة السادسة: إيراد البراهين العقلية على صحة أي ادعاء، لأن العقل قوة مشتركة صالحة للحكم على الأشياء، وميزانا توزن به صحة القضايا وفسادها عقدية كانت أو غير عقدية.

القاعدة السابعة اعتماد منهج المناظرة والحجة والجدال الحسن الذي أوصى به القرآن لإثبات الحقائق، فابن حزم يرى أن "من ينهى عن المناظرة والحجة فليعلم أنه عاص لله عز وجل مخالف لملة إبراهيم ومحمد"[2].

لا ريب أن القواعد المذكورة هي قواعد مستمدة من القرآن الكريم نفسه، الذي يدعو إلى الجدل مع أهل الكتاب بالتي هي أحسن، ويأمر باعتماد العقل وتجنب التعصب والتقليد.

بعد هذه المقدمة القصيرة سنحاول رصد المنهج الذي اتبعه ابن حزم في كتابه الفصل عند تعرضه بالنقد للعقائد النصرانية أولا، ثم في مقال ثان سنتطرق إلى نقده لكتبهم المقدسة.

إن القارئ لكتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل يلاحظ أن ابن حزم تعرض إلى الديانة النصرانية مرتين، في الجزء الأول من الصفحة 109 إلى الصفحة

2 – ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، مطبعة السعادة الطبعة الأولى الجزء 1 ص: 21

132، ثم في الجزء الثاني من الصفحة 13 إلى الصفحة 217، عكس اليهود الذين تعرض لهم بالنقد في الجزء الأول من الصفحة 178 إلى آخر الجزء الأول أي الصفحة 329.

والسبب في ذلك التزام ابن حزم بمنهجه الذي وضعه في مقدمة كتابه المتمثل في تقسيمه للفرق المخالفة لدين الإسلام إلى ست فرق هي:

أولا، مبطلو الحقائق وهم الذين يسميهم المتكلمون بالسوفسطائية.

ثانيا، القائلون بإثبات الحقائق، إلا أنهم قالوا: إن العالم لم يزل، وإنه لا محدث له ولا مدبر.

ثالثا، القائلون بإثبات الحقائق وإن العالم لم يزل وإن له مدبرا لم يزل.

رابعا، القائلون بإثبات الحقائق، وقال بعضهم: إن العالم لم يزل، وقال بعضهم: بل هو محدث. واتفقوا على أن له مدبرين لم يزالوا، وأنهم أكثر من واحد واختلفوا في عددهم.

خامسا، القائلون بإثبات الحقائق وإن العالم محدث وإن له خالقا واحدا لم يزل، وأبطلوا النبوات كلها.

سادسا، القائلون بإثبات الحقائق وإن العالم محدث وإن له خالقا واحدا لم يزل، وأثبتوا النبوات، إلا أنهم خالفوا في بعضها فأقروا ببعض الأنبياء وأنكروا بعضهم.

ونظرا لقول جمهور فرق النصارى بالتثليث، أدخلهم ابن حزم في الفرقة الرابعة القائلة إن العالم محدث وله مدبرين كثر ، إذ يقول مبررا تصنيفه للنصارى ضمن هذه الفرقة الرابعة: "النصارى وإن كانوا أهل كتاب، ويقرون بنبوة بعض الأنبياء عليهم السلام، **فإن جماهيرهم وفرقهم لا يقرون بالتوحيد مجردا، بل يقولون بالتثليث، فهذا مكان الكلام عليهم**. والمجوس أيضا، وإن كانوا أهل

كتاب لا يقرون ببعض الأنبياء، ولكنا أدخلناهم في هذا المكان لقولهم بفاعلين لم يزالا، **فالنصارى أحق بالإدخال ها هنا لأنهم يقولون بثلاثة لم يزالوا**"[3]، وبسبب إنكار بعض فرقهم الموحدة لنبوة النبي ﷺ أدخلهم مع اليهود في الفرقة السادسة التي أثبتت النبوات لكنها أقرت البعض وأنكرت البعض الآخر، يقول ابن حزم في من يقول منهم بالتوحيد وينكر نبوة النبي ﷺ: " الكلام على اليهود **وعلى من أنكر التثليث من النصارى** ومذهب الصابئين وعلى من أقر بنبوة زرادشت من المجوس. قال أبو محمد رضي الله عنه : إن أهل هذه الملة يعني اليهود، **وأهل هذه النحلة يعني من أنكر التثليث من النصارى**، موافقون لنا في الإقرار بالتوحيد، ثم بالنبوة وبآيات الأنبياء عليهم السلام دون بعض، وكذلك وافقتنا الصابئة والمجوس على الإقرار ببعض الأنبياء".

وبذلك يكون حديث ابن حزم عن النصارى في موضعين من كتابه الفصل، منسجما مع ما جاء في مقدمته، بل هو دليل على التزامه بمقدمته التي وضعها، وفي الوقت نفسه إنصاف لمخالفيه من النصارى، إذ اعتبر فرق النصارى الموحدة أيضا، ولم يبخسهم حقهم وذكرهم مع القائلين بالتوحيد في الفرقة السادسة لهذا الاعتبار، غير أنه اقتصر في هذا الموضع الثاني على نقد كتبهم التي يشتركون فيها مع القائلين بالتثليث دون العقائد، لأنه ذكر الفرق الموحدة منهم في الفرقة الرابعة مع الفرق غير الموحدة وعرف بمقولاتهم جميعا في التوحيد.

2- نقد ابن حزم لعقائد النصارى

انتقد ابن حزم عقائد النصارى في الجزء الأول من كتابه عند ذكره لهم في الفرقة الرابعة، ولما كانت عقائد النصارى تختلف باختلاف فرقهم بدأ بذكر كبرى الفرق النصرانية، وقسمها إلى فرق موحدة لا تقول بالتثليث وفرق تعتقده وتؤمن به.

---

3 – نفسه ص: 109

أ- الفرق الموحدة

- أصحاب آريوس:

يعرف ابن حزم بشخصية آريوس قائلا: "والنصارى فرق منهم أصحاب آريوس وكان قسيسا بالإسكندرية ومن قوله التوحيد المجرد وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق وأنه كلمة الله تعالى التي بها خلق السماوات والأرض وكان في زمن قسطنطين الأول باني القسطنطينية وأول من تنصر من ملوك الروم وكان على مذهب أريوس هذا"[4].

يزودنا ابن حزم بمعلومات تاريخية في غاية الأهمية يجدر بنا الوقوف معها وتدبرها، وتتمثل هذه المعلومات فيما يلي:

- كون آريوس قسيسا بالإسكندرية.
- كون آريوس يقول بالتوحيد المجرد.
- كون آريوس ينكر ألوهية السيد المسيح ويثبت عبوديته لله.
- كون عيسى كلمة الله التي خلق بها السماوات والأرض.
- كون آريوس عاش في زمن الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول باني القسطنطينية.
- كون قسطنطين هذا أول من تنصر من أباطرة الروم.
- كون قسطنطين على عقيدة آريوس.

بعد تحديد هذه النقاط التي أشار إليها ابن حزم سنحاول النظر فيما ورد في المصادر المسيحية لنتبين مدى صحة المعلومات التي أوردها ابن حزم ومدى توافقها مع ما ذكره.

---

4 – ابن حزم الفصل الجزء 1 ص: 109

أما بشأن شخصية آريوس وعقيدته، فالمصادر النصرانية، وكذا الكتب التاريخية والمسيحية تشير إلى أنه "قسيس بالإسكندرية (256–336م) ولاّه البطريرك ألكسندر نحو 313م لخدمة كنيسة بإحدى أحياء الإسكندرية، فأثارت تعاليمه ضجة كبيرة، خاصة وأنها كانت تتعلق بعقيدة التثليث، فأريوس أعلن أن الابن في عقيدة الثالوث المقدس لا يساوي الآب. كما أنه ليس من نفس طبيعته ولا يشاركه صفة الخلود، فهو غير مساو له في الطبيعة، ولا في الجوهر consubstanciel، فالمسيح وإن كان أول الخلائق فهو لا يتمتع إلا بألوهية ثانوية وتابعة، كما كان يقول إن روح القدس أقل مكانة ومنزلة من الابن، فبدعة آريوس تتمثل في العلاقة بين هذه الشخصيات الثلاث المكونة للثالوث المقدس، مما أدى إلى انعقاد مجمع نيقية أول المجامع المسكونية في التاريخ الكنسي، المنعقد في 20 ماي سنة 325م ودام شهرا، وشارك فيه حوالي ثلاثمائة أسقف، عمل الإمبراطور أثناءه بكل قوته على إدانة آريوس ونفيه"[5].

أما مذهبه الفكري واللاهوتي فقد أعلن عنه بعد نقاش دار بينه وبين أسقف الإسكندرية، حيث أكد فيه أن الآب هو الإله الحق، وأن الابن ليس كذلك، فهما متعارضان بالضرورة على أساس التعارض بين المخلوق وغير المخلوق، فالله عند آريوس واحد سمي الآب، والمسيح كلمة الله وابنه على سبيل الاصطفاء، وهو مخلوق"[6].

وترى بعض الدراسات أن آريوس وإن لم يقر بعقيدة التثليث التي أُقرت في مجمع نيقية سنة 325م، فهو لم يكن يقول بالتوحيد بالمفهوم الإسلامي أي بالتوحيد المجرد، أمثال عبد المجيد الشرفي غير أن هذا الأخير لم يذكر لنا مصدره في قوله هذا واكتفى بقوله "فمنطلق آرائه أن الله واحد غير مخلوق وكل ما سواه

5 - La grande encyclopédie larousse; Librairie larousse 1972, volume 5, pp. 1010-1011
6 - J. steveneson, A new Eusibus, p.322-323

نقلا عن سالمة عبدالجبار، الدين والسياسة، مرجع سابق، ص: 47.

مخلوق فـ"كلمة" الله لا يمكن أن يكون إلا مخلوقا، ولم يكن آريوس يميز بين الخلق والتولد ويرى أن "الكلمة" لم يكن موجودا في زمن ما، وأن الله لم يكن آبا في ذلك الزمن، فليس "الكلمة" إذن من جوهر الآب، هو مخلوق لا ينتمي إلى الألوهية متغير ومتبدل تبناه الله نظرا لمزاياه السامية، **ولكن آريوس رغم ذلك لا يرفض "الثالوث"، بل هو عنده موجود إنما يتصوره على أساس أن الله خلق كائنا كاملا هو "الكلمة"، ثم خلق الكلمةُ الابنُ بدوره كائنا كاملا آخر هو الروح القدس، هناك إذن ثالوث أشخاص مختلفين من حيث طبيعتُهم وجوهرُهم تربط بينهم علاقات خلق**"[7].

وللمزيد من المعرفة بحقيقة مذهب آريوس رجعنا إلى رسالة لاهوتية تاريخية على مذاهب النصارى كتبها الشيخ عفيف بن مومل فوجدناه يرى "أن آريوس اعتقد أن الابن مخلوق محدث، ثم فوض إليه الآب الألوهية فخلق به السماوات والأرض وما بينهما، وأنه اتخذ من مريم جسما ليس له نفس"[8].

وعلى كل حال يبقى قول ابن حزم: "إن آريوس كان قسيسا بالإسكندرية ومن قوله التوحيد المجرد" قولا صحيحا إذ يتوافق مع ما جاء في المصادر المسيحية الموثوقة، وإن لم يكن كذلك، لما انعقد من أجل عقيدته أول مجمع مسكوني وأخطرها على الإطلاق.

أما بشأن قسطنطين وعقيدته فإن أوثق المصادر والكتب النصرانية تشير إلى أن قسطنطين من كان وراء اضطهاد آريوس وإرساء عقيدة التثليث، بدليل

---

7 – عبد المجيد الشرفي، الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع/ العاشر، الدار التونسية المؤسسة الوطنية للكتاب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية تونس السلسلة السادسة المجلد XXIX، ص: 86.

8 – الشيخ عفيف بن مومل، رسالة لاهوتية تاريخية على مذاهب النصارى، عنى بنشرها لأول مرة وتعليق حواشيها القس إلياس بطارخ الرومي الملكي، مجلة المشرق العدد 11 السنة العشرون تشرين الثاني 1922م، ص: 925. وعفيف بن مومل مسيحي عربي من الملكيين عاش في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي.

أن مجمع نيقية الذي تقررت فيه عقيدة التثليث وألوهية المسيح، كان تحت رعايته ولم يكن يهمه من الأمر إلا استقرار ملكه، ومما يؤكد أن قسطنطين لم يكن يهمه من أمر الخلاف شيء بقدر ما يعنيه هدوء الإمبراطورية تحت سلطانه، خصوصا بعد الانتصار الذي حققه أريوس وأتباعه بعقيدتهم التوحيدية ضد عقيدة بولس الوثنية، ما نستشفه من سطور خطابه لطرفي النزاع: "أريوس" و"الإسكندر"، الذي حمله إليهما مستشاره الديني في شؤون الكنيسة "هوسيوس" والذي جاء فيه: "أنتما يا من يتعالى صياحكما حول نقاط تافهة ووضيعة وسوقية هي حمق صبياني، تقف والضد في حصافة الإكليروس والعقلاء"، واختتم رسالته بقوله: "أعيدوا إليّ أيام خوال وليال غفت فيها جفوني حتى ينالني بهجة الضوء الوهاج ومسرة سكينة الحياة"[9].

ووصفه للنزاع العقائدي بين أريوس والإسكندر بالتفاهة والوضاعة والحمق الصبياني، يؤكد جهله وعدم إدراكه للمسائل اللاهوتية المسيحية، ومع ذلك نجده حاضرا في مجمع نيقية، بل مترئسا له وموجها لقراراته، حاكما على أريوس بالهرطقة والابتداع، وهو ما يظهر بجلاء من خلال رسالته التي وجهها إلى الأساقفة يخبرهم فيها بمصير أريوس، والتي يبدو وكأنه يتوعدهم فيها للقضاء على الفتن والانقسامات حيث يقول: "إن أريوس ورفاقه مبتدعون ومضللون وإن عليهم لعنة الله والإمبراطور، وإذا عثر على أي رسالة كاتبها هو أريوس فليكن مصيرها النار، حتى لا يدرك أي ذكرى له مهما كانت، وإذا قبض على أي شخص يخفي كتابا لأريوس ولا يظهره ويحرقه على الفور فعقابه الموت وتنفيذ العقوبة فور ثبوت الجريمة"[10].

---

9 - Euesbius, "Vita Constantin", Trans. By: H.Lowfor, London 1948, p. 22

نقلا عن سالمة عبد الجبار، ص:60. راجع أيضا كتاب عطا الرحيم، ص: 99-100، وأطروحتنا تاريخ وعقائد الكتاب المقدس بين إشكالتي التقنين والتقديس دراسة في التاريخ النقدي للكتاب المقدس في الغرب المسيحي، خزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ر.ج 220/ كلا، ص: 369-370

10 - P.R.Norton Coleman, Roman State and Christian Church, A collection of Legal Documents to A.D.535.London 1966. p.182-183 = =

والحقيقة أن بعض الدراسات تشير إلى أن قسطنطين تخلى في آخر حياته عن عقيدة مجمع نيقية، أو بالأحرى عن عقيدته الوثنية، وآمن بعقيدة آريوس خصوصا بعد تأثره بوفاة هذا الأخير مسموما سنة 336م، وبتأثير من أخته التي كانت على عقيدة آريوس، وعمَّده صديق آريوس يوزيبيوس النيقوميدي، ليموت بعد ذلك بعام سنة 337م، وبعد أن قضى فترة كبيرة من حكمه يضطهد الذين آمنوا بالوحدانية يموت على العقيدة نفسها التي مات عليها من كان يضطهدهم[11]. وتشير الكتب المسيحية أيضا إلى أن أخت الإمبراطور قسطنطين وابن أخيه جوليان الذي اعتلى عرش الإمبراطورية سنة 361م كانا من معتنقي عقيدة آريوس[12].

من خلال ما سبق نلاحظ أن ابن حزم كان عالما محققا ومدققا في استقاء معلوماته، وفي الوقت نفسه مختصرا لها، إذ لم يشأ الدخول في التفاصيل التي ذكرنا، فاكتفى بذكر عقيدة التوحيد التي مات عليها قسطنطين دون الإشارة إلى عقيدته الوثنية التي كان عليها، فهو لا يسعى إلى التأريخ للفرق النصرانية بقدر ما يسعى إلى الرد على الفرق المنحرفة منها.

- أصحاب بولس الشمشاطي:

عرف ابن حزم بولس الشمشاطي هذا بقوله: "بولس الشمشاطي؛ وكان بطريركيا بأنطاكية قبل ظهور النصرانية، وكان قوله التوحيد المجرد الصحيح، وإن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام، خلقه الله تعالى في بطن مريم من غير ذكر، وأنه إنسان لا إلهية فيه وكان يقول لا أدري ما الكلمة ولا روح القدس"[13].

= = نقلا عن سالمة عبد الجبار، ص:69.

11 – عطا الرحيم، ص: 112

12 – محمد عبد الحميد الحمد، التوحيد والتثليث في حوار المسيحية والإسلام، دار الطليعة الجدية، الطبعة الأولى 2003، ص: 147

13 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مصدر سابق، الجزء الأول، ص: 109–110.

ولنستبين أمر هذه الشخصية فبولس الشمشاطي أو Paul de Samosat كما تسميه المصادر الغربية كان رجلا سريانيا من بلدة سميساط، درس الكتب المقدسة وتفسيرها باللغة اليونانية والسريانية، وكان خطيبا بارعا عمت شهرته آسيا الصغرى وغرب سورية، فدعته الملكة زنوبيا (230–272م) ملكة تدْمر إلى بلاطها، وعينته أسقفا على تدمر (260–265م)، وكانت تدْمر مدينة عربية اللسان، ولكن لغة الثقافة كانت السريانية. وتصادف أن وجد في بلاطها ثلاثة شخصيات مرموقة، الفيلسوف لونجينوس وتلميذه فرفوريس الصوري والأسقف بولس السميساطي، وتميزت تدْمر بصراع بين الثقافة الوثنية والأفلاطونية الحديثة، حيث كتب فرفوريس كتابا ضد المسيحيين أنكر فيه معجزات السيد المسيح، واعتبره إنسانا كاملا في سموه الروحي، فرد عليه الأسقف بولس "عندما اعتبر أن المسيح كلمة الله الحية (Logos) كان ممتلكا قوة إلهية منذ ولادته، ولكنه أنكر أقنوم الكلمة وأقنوم الروح القدس، معتبرا إياهما مجرد قوتين مصدرهما الله كالعقل والتفكير في الإنسان،... وكان يُعَلَم أن المسيح كان خاليا من الخطيئة وأنه تغلب على خطيئة أجدادنا وصار مخلصا للجنس البشري"[14]. وكانت أفكاره هاته وراء انعقاد مجلس أنطاكية (268م) الذي حرم أفكاره.

ويرى البطريرك يوسف الدبس أن بولس السيمساطي اعتمد في هرطقته على الأناجيل "فالمسيح ليس إلها بل بشرا، حل الله به كحلوله في غيره من القديسين وإن بنوع أسمى، فلا يكون الكلمة تجسد، ولا الله قد افتدانا بابنه الوحيد، بل أرسله إلى العالم رسولا كأحد الرسل والأنبياء، وتكون محبته ووساطته بين البشر متناهية عادية"[15].

---

14 – يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، ترجمة القس مرقص داود، القاهرة، دار الكرنك 1960م، ص: 334، نقلا عن محمد عبد الحميد الحمد، التوحيد والتليث في حوار المسيحية والإسلام، مرجع سابق، ص: 115.

15 – المطران يوسف الدبس، تاريخ سورية وفلسطين، بيروت 1893م، الجزء الرابع ص: 386، نقلا عن محمد عبد الحميد الحمد، التوحيد والتثليث.. مرجع سابق، ص: 117.

وقد أنكر مجمع نيقية عقيدة بولس التي تنكر الصلب وأنكر مجمع القسطنطينية الأول قوله: إن الذي ولد من مريم إنسان محض، تبرر بعدئذ بأعماله الصالحة فحل به اللاهوت، ونفى بأن صلبه كان خيالا.

أما الشيخ عفيف بن مومل فأشار إلى عقيدة بولس هذا في قوله: "قال إن المسيح إنسان محض"[16].

أما قول ابن حزم إن بولس كان لا يعر ف الكلمة وروح القدس فمعناه أنه لا يقول بألوهيتهما، لأنه فيلسوف وله دراية بالفلسفة اليونانية وفلسفة فيلون خاصة، لكنه لا يعترف بالألوهية إلا لله، كما كان ينكر عقيدة صلب السيد المسيح عليه السلام.

وبالتالي فبولس الشمشاطي لا علاقة له ببولس الرسول الذي كان يُسمّى شاول ورفيق برنابا المذكور معه في سفر أعمال الرسل[17] والذي أدخل التثليث إلى النصرانية، لكن للأسف نجد محققي الفصل يضعان هامشا[18] للتعريف ببولس الشمشاطي ويخلطان بينه وبين بولس الرسول، وكان يكفيهما قراءة ما كتبه ابن حزم نفسه عن بولس الشمشاطي، من كون هذا الأخير كان يقول بالتوحيد المجرد، ليعلما أن المقصود ببولس الشمشاطي شخصية أخرى يلزمهما البحث عنها.

والملاحظ أن ابن حزم لم يذكر العصر الذي عاش فيه آريوس (256-336م) أو بولس الشمشاطي(150-270م)، ومع أن هذا الأخير عاش قبل آريوس، فقد ذكره ابن حزم بعده، وهذا لا يعني أنه لم يكن على علم بالعصر الذي عاش فيه كل منهما بدليل أنه قال عن بولس "كان بطريركا **قبل ظهور النصرانية**"، أي قبل انتشارها في الإمبراطورية الرومانية بعد اعتناق قسطنطين لها، وإنما ذكر آريوس أولا لتأثيره العقدي القوي.

---

16 – عفيف بن مومل، مرجع سابق، ص: 937

17 – سفر أعمال الرسل13

18 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/ 1، ص: 109-110، الهامش رقم 3.

- أصحاب مقدونيوس.

يقول عنه ابن حزم: "وكان منهم مقدونيوس وكان بطريركا في القسطنطينية بعد ظهور النصرانية أيام قسطنطين بن قسطنطين باني القسطنطينية وكان هذا الملك أريوسيا كأبيه وكان من قول مقدونيوس هذا التوحيد المجرد وإن عيسى عبد مخلوق إنسان نبي رسول الله كسائر الأنبياء عليهم السلام وإن عيسى هو روح القدس وكلمة الله عز وجل وإن روح القدس والكلمة مخلوقان خلق الله كل ذلك"[19].

تركز الكتب المسيحية على بدعة مقدونيوس حول ألوهية الروح القدس فقط، ففي تعريفها لمقدونيوس نجد أنه "كان بطريركا بالقسطنطينية ما بين 343م و347م وما بين 350م و360م، وبعد سنة 360 أسس مذهبه المسمى باسمه، والمعروف أيضا بـ: Pneumatomaque والذي ينكر ألوهية روح القدس، وقد كان قوله هذا وراء انعقاد مجمع القسطنطينية الأول 381م الذي تمت فيه إدانة مقدونيوس وإصدار قانون يقضي بتأليه روح القدس واكتمال عناصر التثليث"[20].

لكن "واند" يؤكد أن اسم مقدونيوس ارتبط "بمذهب خاص بالروح القدس على الرغم أنه لا علاقة له بذلك، وكان الرأي الذي نسب إليه امتدادا للعقيدة الأريوسية فيما يتعلق بالكلمة لكي يجعله يشمل قضية الروح، ووفقا لذلك لا يمكن الاعتقاد بأن الروح من نفس الجوهر مع الإله الأعلى لأنه مخلوق"[21]، وقد سمي أتباع مقدونيوس بالأبولينياريون وبالبنوماتوماكيين[22].

---

19 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/ 1، ص: 110.

20 - Dictionnaire encyclopedique Quillet, Librairie Aristide Quillet Pqris 1968, imprimé en Feance édition 1975; p.3966

21 - J.W.C. wand; Ahistory of the early church. London 1957. p. 187.

22 – راجع كتاب سوسنة سليمان في أصول العقائد والأديان، وهو المبحث الرابع من المقالة الثانية من كتاب زبدة الصحائف في أصول المعارف تأليف نوفل أفندي نوفل المطبعة الأمريكية بيروت 1922 الطبعة الرابعة، ص: 145. = =

ولكن المعلومات التي أوردها ابن حزم بخصوص مقدونيس تعدت ما أشارت إليه المصادر المسيحية، حيث بيّن عقيدة مقدونيوس التوحيدية، وهو ما تؤكده رسالة الشيخ مومل التي ذكرت أن مقدونيوس "اعتقد أن الابن والروح القدس مخلوقان وأن الرب لم يتخذ عقلا إنسانيا لكن نفسا فقط"[23].

أما المعلومة الهامة التي أضافها ابن حزم فتتمثل في أن الإمبراطور الذي عاش في زمنه مقدونيوس كان من أصحاب عقيدة التوحيد، وهي معلومة صحيحة، ذلك أنه بعد وفاة قسطنطين سنة 337م تقاسم أبناؤه الإمبراطورية فكان قسطنيوس (Constant) الحاكم في الغرب يؤيد الحزب النيقي، بينما كان قسطنطين الثاني في الشرق يميل إلى الأريوسيين، "واستمر الإيمان بالوحدانية رسميا كمذهب معترف به للمسيحية الحقيقية، وانعقد مؤتمر في أنتيوخ عام 341م واعترف بالتوحيد كمبدأ أساسي للمسيحية وهذا الحكم أكده مؤتمر آخر انعقد في سيرميوم في عام 351م بمساندة الإمبراطور قسطنطين الثاني وهكذا اعتنق غالبية المسيحيين في ذلك الوقت مذهب آريوس"[24].

ذكر ابن حزم من فرق النصارى الموحدة ثلاثة فقط، والحقيقة أن الفرق الموحدة من النصارى كانت أكثر من ذلك، ذلك أن التوحيد هو الطابع العام والأصلي في دعوة المسيح عليه السلام، كما كان التوحيد عقيدة الجماعات النصرانية الأولى وتشير المصادر النصرانية إلى أسماء أشخاص موحدين عرفوا بإنكارهم لعقيدة التثليث وألوهية السيد المسيح عليه السلام، أمثال إيرانيوس (130–200م) وتيرتليان (160–220م)، وثيودوس (ت 220م)، أوريجين (185–245م)، أرتيمون (ت 230م)، لوسيان توفي عام 312م، أما بخصوص الفرق الموحدة فلم يذكر فرقة الأبيونيين، وهي فرقة ظهرت بعد خراب أورشليم سنة 70م وقيل

= = وأيضا كتاب عبد الكريم الشهرستاني الملل والنحل، صححه وعلق عليه أحمد فهمي محمد، منشورات محمد علي بيضون، بيروت دار الكتب العلمية، ص:247.

23 – عفيف بن مومل، مرجع سابق، ص: 926.

24 – عطا الرحيم، ص: 114–115.

ظهرت في أواخر القرن الثاني الميلادي، وقد رفضوا القول بالتثليث وقالوا إن المسيح ليس سوى نبي، وتعتمد الجماعة إنجيلا غير الأناجيل الأربعة يقال له إنجيل الأبيونيين[25].

ب- الفرق غير الموحدة

بعد الفراغ من ذكر الفرق الموحدة بدأ ابن حزم بعدِّ الفرق النصرانية غير الموحدة ذاكرا مكان انتشارها وعقيدتها في التثليث، وهدفه من ذلك الرد على هذه المعتقدات كلها وبيان بطلانها، ملتزما بما التزم به في مقدمة كتابه بضرورة ذكر كل أقوال الملة التي هو بصدد نقدها والرد عليها.

- البربرانية:

يقول ابن حزم معرفا بهذه الفرقة النصرانية: "ومنهم البربرانية وهم يقولون إن عيسى وأمه إلهان من دون الله عز وجل وهذه الفرقة قد بادت"[26]، لم يذكر ابن حزم عن هذه الفرقة أكثر من هذا، ولم أتمكن من إيجاد تعريف لهذه الفرقة في المصادر العربية وكل من ذكرها لا يزيد عما ذكره عنها ابن حزم شيئا، من كونها تقول إن المسيح وأمه إلهان، وأنها فرقة منقرضة، وربما السبب في ذلك التحريف الذي لحق اسم الفرقة.

والذي وقفنا عليه في المصادر المسيحية هو الهرطقة أو البدعة المريمية (الفطـائريين Collyridiens) ، أو بدعة المريميين Marian، وقد ذكرها معجم "ديدرو" (DIDEROT)[27] على أنها بدعة نصرانية عربية عبارة عن شعيرة تقديس

25 – عطا الرحيم ص: 80–82، وبسمة أحمد جستنية، تحريف رسالة المسيح عليه السلام عبر التاريخ أسبابه ونتائجه، دمشق دار القلم الطبعة الأولى 1420هـ–2000م ص:300–301،

26 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/ 1، ص: 110.

27 - COLLYRIDIENS, sub. m. pl. (Hist eccl.) anciens hérétiques qui portoient à la Vierge un hommage outré & superstitieux ; saint Epiphane qui en fait mention, dit que des femmes d'Arabie entêtées du Collyridianisme s'assembloient un jour de==

النساء للعذراء من خلال تقديم طقس عبادي يقوم أساسا على تقديم قربان لها على شكل فطائر تؤكل فيما بعد من قبلهن باسمها، وإلى الاسم اليوناني لهذه الفطائر نسبت العقيدة.

ونحتاج إلى مزيد من البحث عن أصول هذه الفرقة وسبب انتشارها في جزيرة العرب وامتدادها، وذلك لسببين أولهما أن النصارى يزعمون أنهم لم يتخذوا المسيح وأمه إلهين، والثاني مرتبط بالأول وهو الرد على هذه الشبهة من خلال إثبات العلاقة بين هذه العقيدة والفرق المنبعثة في القرن الماضي التي نادت بتقديس مريم عليها السلام.

- الملكانية وتسمى أيضا المِلْكية، (Melkite):

ينتقل ابن حزم ليعرف بكبرى الفرق المسيحية وأمكنة تواجدها وعددها ثلاث، مبتدئا بالملكانية، يقول ابن حزم: "وعمدتهم اليوم ثلاث فرق فأعظمها فرقة الملكانية وهي مذهب جميع ملوك النصارى حيث كانوا حاشى الحبشة والنوبة ومذهب عامة أهل كل مملكة للنصارى حيث كانوا حاشى الحبشة والنوبة ومذهب جميع نصارى افريقية وصقلية والأندلس وجمهور الشام وقولهم إن الله تعالى عبارة عن قولهم ثلاثة أسباب أب وابن وروح القدس كلها لم تزل وإن عيسى عليه السلام إله تام كله وإنسان تام كله ليس أحدهما غير الآخر وأن الإنسان منه هو الذي صلب وقتل وأن الإله منه لم ينله شيء من ذلك وإن مريم ولدت الإله والإنسان وأنهما معا شيء واحد ابن الله تعالى الله عن كفرهم"[28].

ولا يختلف ما أورده ابن حزم بشأن هذه الفرقة عما هو وارد في المصادر المسيحية وعما هو معروف عنها اليوم، فالموسوعة la grande encyclopédie larousse تعرف فرقة الملكانية بكونها "طائفة مسيحية بيزنطية منتشرة في سوريا

= = l'année pour rendre à la Vierge leur culte impertinent, qui consistoit principalement dans l'offrande d'un gâteau qu'elles mangeoient ensuite en son nom. Le nom Collyridien vient du mot Grec collyre, petit pain ou gâteau.

28 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/ 1، ص: 110–111.

ومصر وفلسطين، يتكلم معظمهم العربية ويرأسهم بطريرك يقيم في دمشق وفي القاهرة، ينتمون إلى الكنيسة الأرثودوكسية. وخلال القرون الثلاثة الأخيرة انضمت مجموعات منهم إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، سموا بالملكانية لأنهم أيدوا القرار الذي اتخذه مجمع خلقدونية سنة 451م ضد بدعة المونوفيزية القائلة بطبيعة واحدة للسيد المسيح، فلقبهم مخالفوهم ازدراء لهم بالملكيين لوقوفهم إلى جانب الملك مرقيانوس الذي كان يعضد المجمع"[29].

ويعتبر القديس باسيليوس الكبير (330–390م) والقديس غريغوريوس النازيانزي(229–390م) والقديس غيغوريوس النوسي (335–494م)، هم الذين حددوا سمات ومبادئ المذهب الملكي المسيحي القائل إن في المسيح أقنوم واحد وطبيعتان، وكان باسيليوس يعتقد "أن الله واحد وأن كل من الآب والابن والروح القدس ليسوا سوى أقنوم واحد وأن المسيح ذبيحة من أجل خلاص البشر"[30].

أما عقيدة هذه الفرقة فقد عبر عنها عفيف بن مومل الملكي في قوله: "اعلم أننا نحن الملكية نعتقد أن السيد المسيح مولود من مريم أقنوم واحد إلهي، ذو طبيعتين: طبيعة إلهية وطبيعة بشرية، ومشيئتين: مشيئة إلهية ومشيئة بشرية، وفعلين: فعل إلهي وفعل بشري. وإنه حل بدن العذراء مرتمريم، واتخذ طبيعة ناسوتية، ومشيئة ناسوتية، وفعلا ناسوتيا. ولم يؤخذ أقنوم لأنه اتخذ طبيعة عامة مجردة عن الأقانيم لأن الطبيعة الإلهية والبشرية اتحدا بأقنوم واحد، وإن الابن أي الكلمة اتحد اتحادا ظهوريا كاتحاد النار بالحديد"[31].

---

29 - la grande encyclopédie larousse, volume 38, p. 7835

راجع أيضا الموسوعة العربية الميسرة محمد شفيق غربال، در الشعب مؤسسة فراكلين للطباعة والنشر ص: 1742.

30 – جلانفيل داوني، إنطاكية في عهد ثيودوسيوس الكبير، ترجمة ألبرت بطرس مكتبة لبنان 1968م ص: 209.

31 – عفيف بن مومل، رسالة لاهوتية... ص: 917

ومما لا شك فيه أن ابن حزم كان يحرص على التثبت والتأكد من الأقوال التي ينسبها إلى خصومه، وهو الأمر الذي يظهر لنا بكل وضوح عند مقارنة عقيدة الفرقة الملكانية كما ذكرها ابن حزم، مع ما أشرنا إليه من قبل على لسان مومل بن عفيف، وهي العقيدة نفسها التي ذكرها بولس الراهب أسقف صيدا الأنطاكي المِلكاني في رسالته المسماة "رسالة مختصرة عقلية"، حيث قال عند ذكره لعقائد الفرق النصرانية الأربعة الملكية والنسطورية واليعقاقبة والموارنة: "وإذ قد شرحت الأمانة التي لا خلاف فيها بين هذه الأربع فرق التي في زماننا هذا في شيء منها، أوضح ما تعتقده الملكية، وأقول: إن الملكية يعتقدون أن السيد مسيح المولود من السيدة مريم، أقنوم واحد إلهي، وهو المولود من الآب قبل كل الظهور. وإنه طبيعتان: طبيعة إلهية، وطبيعة بشرية، وفعلان: فعل إلهي، وفعل بشري. ومشيئتان: مشيئة إلهية، ومشيئة بشرية، وإن السيدة مرتمريم والدة الإله بقولهم أقنوم واحد إلهي"[32].

وإذا بدت لنا بعض الخلافات الطفيفة بين تعريف ابن حزم لعقيدة هذه الفرقة مع تعريف مومل بن عفيف أو بولس أسقف صيدا، أو حتى بين تعريف هذين الأخيرين، فالسبب راجع في كون العقائد المسيحية كلها غير مفهومة بعيدة الإدراك عن طريق العقل، وقد أشار إلى هذه النقطة بالذات الجاحظ في رسالته في الرد على النصارى حيث قال: "ولو جهدت بكل جهدك وجمعت كل عقلك أن تفهم قولهم في المسيح لما قدرت عليه حتى تعرف به حد النصرانية وخاصة قولهم في الإلهية. وكيف تقدر على ذلك وأنت لو خلوت ونصراني نسطوري فسألته عن قولهم في المسيح لقال قولا ثم إن خلوت بأخيه لأمه وأبيه وهو نسطوري مثله فسألته عن قولهم في المسيح لأتاك بخلاف أخيه وصنوه،

32 - Paul KHOURY, Paul d'Antioche Evéque melkite de Sidon (XIIes.), recherches publiées sous la direction de l'institut de lettres orientales de beyrouth, tome XXIV, imprimerie catholique beyrouth, librairie orientale 1964; p. 86 du texte Arabe; IV, 7

وكذلك جميع الملكانية واليعقوبية ولذلك صرنا لا نعقل حقيقة النصرانية كما نعرف جميع الأديان"[33].

- النسطورية:

يحدد لنا ابن حزم عقيدة هذه الفرقة النصرانية ومكان تواجدها وانتشارها قائلا: "وقالت النسطورية مثل ذلك سواء بسواء [أي مثل قول الملكانية]، إلا أنهم قالوا إن مريم لم تلد الإله وإنما ولدت الإنسان. وأن الله تعالى لم يلد الإنسان، وإنما ولد الإله- تعالى الله عن كفرهم- وهذه الفرقة غالبة على الموصل والعراق وفارس وخراسان، وهم منسوبون إلى نسطور بطريركا بالقسطنطينية".

وهذا التعريف نفسه اشتملت عليه المصادر النصرانية التي تشير إلى "أن نسطوريوس الجيرمانيقي المرعشي ولد سنة 378م، وجاء إلى دير القديس أوبريبيوس قرب أنطاكية، ودرس على يد ثوادورس أسقف المصيصة، وكان معلمه يوحنا الأنطاكي المتوفي سنة 442م وثاودوريطس أسقف قورش المتوفي سنة 458م، وتخرج من الدير وسمي كاهنا، وأعطى شرح التعليم المسيحي للموعظين، ونال شهرة فانتخب بطريركا للقسطنطينية سنة428م، وخطب في عيد الفصح المجيد: " إن للمسيح جوهران وأقنومان إله تام بأقنومه وجوهره، وإنسان تام بأقنومه وجوهره، وإن مريم البتول هي أم ناسوته لا لاهوته، ومنه فالعذراء ليست أم الإله"[34].

ولما سمع بطريرك الإسكندرية ميرلس (412–444م) مقولته حول طبيعة المسيح، وقوله عن أم الإله، أرسل إليه رسالة يذكره "بأن المسيح طبيعة واحدة

---

33 – أبو عمرو بحر الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، بيروت دار الجيل الطبعة الأولى 1411هـ- 1991م، الجزء الثالث، القسم الأول من الفصول المختارة من كتب الجاحظ اختيار الإمام عبيد اله بن حسان، ص: 324

34 – يحيى بن سعيد الأنطاكي، التاريخ المجموع، تحقيق لويس شيخو، بيروت 1905م، الجزء الأول ص: 159.

وأقنوم واحد، لأن المسيح كان قبل التجسيد من طبيعتين وبعد التجسيد صار من طبيعة إلهية واحدة"، فرد عليه نسطور "إن كلمة الله كان قبل كل الدهور، إلا أنه أنكر أن مريم العذراء هي والدة اللاهوت بل هي والدة الجسد لأن للمسيح طبيعتين"، فقام كيرلس يثير عليه باقي الكنائس، مما جعل الإمبراطور ثيودوسيوس الصغير إلى عقد مجمع أفسس في شهر حزيران سنة 431م الذي تقرر فيه: "إن المسيح مساو للأب في الجوهر، وقد تجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء، وهو كامل في اللاهوت وكذلك في الناسوت، ونفس ناطقة وهو لئن كان إلها تاما وإنسانا تاما لكنه ليس اثنين، وإنما هو مسيح واحد بطبيعة واحدة من طبيعتين، اتحدتا اتحادا جوهريا وطبيعيا بلا امتزاج ولا اختلاط، ولا تغير ولا تبلبل ولا انفصام ولا تمييز، وهو أقنوم واحد من أقنومين، هو الرب يسوع، وإن مريم والدة الإله"[35]، وحرم نسطوريوس وأعفي من منصبه ونفي إلى بلدة "أوسا" وتوفي في مصر سنة 450م في عهد الملك مرقيان.

ولا تختلف المعلومات التي أوردتها الموسوعة الكبرى "لاروس" عما ذكرنا، فالنسطورية كما جاء فيها "بدعة ظهرت في القرن الخامس الميلادي، قال بها نسطور بطريرك القسطنطينية (428– 431)م، وكان نسطور يقول: إن العذراء مريم لم تلد ابن الله، وإنما ولدت الإنسان الذي تجسد فيه فيما بعد الأقنوم الثاني للثالوث المقدس. وبالتالي فمريم تعتبر christokos أي أم المسيح ومن تم رفض لقب أم الإله théotokos، وكانت هذه البدعة وراء انعقاد ثلاثة مجامع دينية متلاحقة هي مجمع أفسس 431م، مجمع خلقدونية 451م، ومجمع القسطنطينية 553م"[36].

أما الشيخ مومل بن عفيف الملكاني فقبل الرد على النسطورية سرد قولهم واعتقادهم في المسيح قائلا: "قالوا إن السيد المسيح أقنومان: أقنوم إلهي، وأقنوم

35 – المجلة البطريركية العددان 135–136، دمشق 1994، ص: 264 .

36 - La grande ecyclopédie Larousse, volume 41, p. 8490

انظر الموسوعة العربية الميسرة ص: 1832

بشري. وطبيعتان: طبيعة إلهية، وطبيعة بشرية، ومشيئة واحدة إلهية، وفعل واحد إلهي. وإن السيدة مرتمريم لم تلد إلها بل إنسانا. وإن اتحاد اللاهوت بالناسوت اتحاد مجاورة كمجاورة الزيت والماء في الإناء. وإن المسيح إله تام وإنسان تام"[37].

وهذه الأقوال التي ذكرت النسطورية وعرفت بها لا تختلف كثيرا عما ذكره ابن حزم، خاصة ما أورده بشأن إنكار نسطوريوس أن تكون مريم أما للإله.

- اليعقوبية: يصل ابن حزم إلى ثالث فرقة نصرانية ليعرف بعقائدها هي الأخرى وبمكان انتشارها ويقول: "وقالت اليعقوبية إن المسيح هو الله تعالى نفسه وأن الله تعالى عن عظيم كفرهم مات وصلب وقتل وأن العالم بقي ثلاثة أيام بلا مدبر والفلك بلا مدبر ثم قام ورجع كما كان وأن الله تعالى عاد محدثا وأن المحدث عاد قديما وأنه تعالى هو كان في بطن مريم محمولا به وهم في أعمال مصر وجميع النوبة وجميع الحبشة وملوك الأمتين المذكورتين. فإنهم ينسبون إلى يعقوب البرذعاني وكان راهبا بالقسطنطينية"[38].

وفرقة اليعقوبية كما ذكرها معجم Quiellet تعرف باسم المونوفيزية أكثر من اسم اليعقوبية، وهي "فرقة مسيحية أسسها بأنطاكية يعقوب البردعاني في 543م، وهم لا يقبلون في المسيح سوى الطبيعة الإلهية، أي: أن المسيح له طبيعة واحدة لاهوتية مونوفيزية (mnophysiste) يترأسها بطريرك في حمص بسوريا"[39]، ويخالف ابن حزم la grande encyclopédie بخصوص مكان تأسيس هذه الفرقة بين الإسكندرية وأنطاكية، والحقيقة أن متتبع سيرة هذه الشخصية يدرك أن مار يعقوب البرادعي (505-578)م كان يرتحل بين الكنائس ويعين أتباعا على رأس

37 - الشيخ مول بن عفيف، رسالة لاهوتية تاريخية على مذاهب النصارى، ص: 922-923.

38 - الفصل في الملل والأهواء والنحل، الجزء الأول، ص: 111-112

39 - Dictionnaire encyclopédique Quillet, p. 3561

كل منها، فقد رحل إلى الإسكندرية سنة 543م، ورسَّم بها أسقفين بمعاونة بعض أساقفتها، وصار يدور ويطوف في البلاد منكرا ذاته، وفي أرمينيا رسَّم راهبين هما جورجيس وغريغور، كما رسّم البطريرك بولس الأسود على كرسي إنطاكية، وجعل مقره في الرصافة، ويؤكد هذا صاحب كتاب مدح اليعاقبة وإيمان السريان قائلا: "إن مار يعقوب البرادعي سار في الدنيا كلها ودخل بلد المشرق وكرز فيها وعين قسوسا وشمامسة كثيرين، ومضى إلى بلاد الشام وكرس لهم مطارنة على السواحل كلها.. ودخل بلاد القبط وعين بطريركا بالإسكندرية وآخر لأنطاكية ودخل بلاد النوبة وإلى بلاد الحبشة، وعين عشرين أسقفا ومطرانا وبطريكين، ومات في برية الإسقيط وظل أسقفا للرها 37 سنة ويتفاخر السريان أنه أبو ملتهم"[40].

هذا ما ذكره ابن حزم عن فرق النصارى، وهناك فرق أخرى ذكرها بالاسم دون التفصيل في معتقداتها، والسبب في ذلك أنه التزم الحديث عن أشهر الفرق حين قال: "وعمدتهم اليوم ثلاث فرق"، بمعنى أنه لن يذكر إلا أهم هذه الفرق.

أما الفرق التى ذكرها دون تفصيل فهى: البولقانية والمارونية، أما البولقانية فقد ذكرها فى ثلاثة مواضع، نص فى موضعين منها على أنها فرقة توحيدية، أما المكان الأول فقال فيه: "وكل ما ذكرنا فى هذا الباب أنه يدخل على النصارى الذين يقولون بنبوة عيسى عليه السلام فقط من الأريوسية والمقدونية والبولقانية"[41]، أما الموضع الثانى فقال فيه: "وأما نحن فنقول والعيسوية من اليهود معنا والأريوسية والبولقانية والمقدونية من النصارى أنه عبد آدمى خلقه الله تعالى في بطن مريم عليها السلام من غير ذكر"[42]،

---

40 – نقلا عن كتاب ذخيرة الأذهان، القس بطرس نصري الكلداني، الموصل 1905، الجزء الأول ص: 139.

41 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 177، فصل: الكلام على اليهود وعلى من أنكر التثليث من النصارى.

42 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/2، ص: 28، فصل ذكر مناقضات الأناجيل الأربعة والكذب الظاهر الموضوع فيها.

أما المارونية فذكرها في موضع واحد ولم يشر إن كانت من الفرق الموحدة أم المثلثة، وهو الموضع الثالث الذي ذكر فيه البولقانية، وذلك في قوله: "وأما النصارى فقد كفونا هذه المؤنة كلها لأنهم لا يدعون أن الأناجيل منزلة من عند الله على المسيح ولا أن المسيح أتاهم بها بل كلهم أولهم عن آخرهم ريوسيهم ومليكهم ونسطوريهم ويعقوبهم ومارونيهم وبولقانيهم لا يختلفون من أنها أربعة تواريخ ألفها أربعة رجال معروفون في أزمان مختلفة"[43].

3- نقد ابن حزم للعقائد النصرانية

أ- نقد عقيدة التثليث:

بعدما انتهى ابن حزم من ذكر عقيدة كل فرقة نصرانية على حدة في التثليث بدأ بالرد عليها جميعا، مبتدءا باليعقوبية، وإن كانت آخر ما ذكر من الفرق، لأنه يرى أن قولهم أضعف الأقوال ففضل الانتهاء منه أولا، ومع أن ابن حزم يرى في أقوال هذه الفرق مساسا بالذات الإلهية وتناقضا مع عقيدة التوحيد، فلم يمنعه ذلك من التعرض إليها، ويبرر فعله هذا اعتمادا على القرآن الكريم الذي ذكر هذه العقائد وبين بطلانها، يقول ابن حزم: "ولولا أن الله تعالى وصف قولهم في كتابه، إذ يقول تعالى: "لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم" وإذ يقول تعالى حاكيا عنهم: "إن الله تعالى ثالث ثلاثة"، وإذ يقول تعالى: "أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله". لما انطلق لسان مؤمن بحكاية هذا القول العظيم الشنيع السمج السخيف. وتا الله لولا أننا شاهدنا النصارى ما صدقنا أن في العالم عقلا يسع هذا الجنون ونعوذ بالله من الخذلان"[44]، وللجاحظ قول قريب من قول ابن حزم هذا، إذ يقول في رسالته في الرد على النصارى " ولولا أن الله قد حكى عن اليهود أنهم قالوا: إن عزيرا ابن

43 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/2، ص: 14.

44 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 111-112.

الله، ويد الله مغلولة، وإن الله فقير ونحن أغنياء وحكى عن النصارى أنهم قالوا: المسيح ابن الله وقال: قالت النصارى المسيح ابن الله. وقال: لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة، لكنت لأن أخر من السماء أحب إلي من أن ألفظ بحرف مما يقولون. ولكني لا أصل إلى إظهار جميع مخازيهم، وما يسرون من فضائحهم، إلا بالإخبار عنهم، والحكاية منهم."[45]، ولعل هذا يجعلنا نفكر في كون ابن حزم اطلع على رسالة الجاحظ في الرد على النصارى، ومنها اقتبس مقولته هذه.

- نقد عقيدة اليعقوبية في المسيح:

قبل التعرض بالنقد لقول اليعقوبية وعقيدتهم في السيد المسيح، يعرض لنا ابن حزم هذه العقيدة ويعرفنا بها مدليا برأيه فيهم، وهم في نظره بهذه العقيدة أبعد عن العقل من غيرهم يقول فيهم: "وهم فرقة نافرت العقل والحس منافرة وحشية تامة، لأن الاستحالة نقلة، والنقلة والاستحالة لا يوصف بهما الأول الذي لم يزل، تعالى عن ذلك علوا كبيرا، ولو كان كذلك لكان مخلوقا، والمحدَث يقتضي محدِثا خالقا له. ويكفي من بطلان هذا القول، دخوله في باب المحال والممتنع الذي قد أوجب العقل والحس بطلانه. وليس في باب المحال أعظم من أن يكون الذي لم يزل، يعود محدثا لم يكن ثم كان، وأن يصير غير المؤلف مؤلفا. ويلزم هؤلاء القوم أن يعرفونا من دبر السماوات والأرض، وأدار الفلك هذه الثلاثة الأيام التي كان فيها ميتا، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا"[46].

واعتمد ابن حزم في رده على منافاة ما تدعيه اليعقوبية من كون المسيح هو الله تعالى العقل، فالله لا يحده زمان ولا مكان، والمسيح محدود بزمان ومكان معينين، كما أن التحول إلى جسد لا يوصف بهما الأول، فلا يجوز عقلا أن يتحول

45 – الرد على النصارى الجاحظ، ص: 334

46 – نفسه، ص: 112

الله إلى جسد، ولو حدث ذلك لأصبح مخلوقا، ويُنهي ابن حزم كلامه مع اليعقوبية بسؤالهم إذا كان الله هو المسيح الذي مات وصلب وبقي على الصليب ثلاثة أيام كما تدعي الأناجيل، فمن دبر العالم خلال هذه المدة التي كان الله فيها ميتا؟ ومقصوده بهذا، أن العالم لو استطاع أن يدبر نفسه في غنى عن خالقه لمدة ثلاثة أيام بل لمدة ثانية من الزمان، لاستطاع ذلك دائما وأبدا، وما كان لقيامة خالقه بعد الموت ضرورة في سيرورته.

ثم ينتقل ابن حزم للرد على المكانية والنسطورية في آن واحد لقولهم بالتثليث، أي أن الله تعالى عبارة عن ثلاثة أشياء آب وابن وروح القدس.

- نقد عقيدة الملكانية والنسطورية في المسيح:

يقول ابن حزم للفرقتين معا: "ثم يقال للقائلين بأن الباري تعالى ثلاثة أشياء أب وابن وروح القدس أخبرونا إذ هذه الثلاثة الأشياء لم تزل كلها وأنها مع ذات شيء واحد إن كان ذلك كما ذكرتم فبأي معنى استحق أن يكون أحدها يسمى أبا والثاني أبا وأنتم تقولون أن الثلاثة واحد وأن كل واحد منها هو الآخر فالأب هو الابن والابن هو الأب وهذا هو عين التخليط وإنجيلهم يبطل هذا بقولهم فيه سأقعد عن يمين أبي وبقولهم فيه إن القيامة لا يعلمها إلا الأب وحده وأن الابن لا يعلمها فهذا يوجب أن الابن ليس هو الأب وإن كانت الثلاثة متغايرة وهم لا يقولون بهذا فيلزمهم أن يكون في الابن معنى من الضعف أو من الحدوث أو من النقص به وجب أن ينحط عن درجة الأب والنقص ليس من صفة الذي لم يزل مع ما يدخل على من قال بهذا من وجوب أن تكون محدثة لحصر العدد وجرى طبيعة النقص والزيادة فيها على حسب ما قدمناه في حدوث العالم"[47].

47 – الفصل الجزء الأول، ص: 112–113

اعتمد ابن حزم في رده لقولهم بالتثليث على العقل والنقل معا.

أما من جهة العقل فيقول لهم إذا كان الثالوث المقدس المكون من الآب والابن والروح القدس عبارة عن ثلاثة أشخاص غير متمايزة وفي المرتبة نفسها، فكيف تميّز أحدها واعتُبر أبا، وتميّز الثاني واعتُبر ابنا، وتميّز الثالث واعتُبر روحا للقدس؟ فهذا التمييز من جهة العقل، يعنى أن الآب استحق هذه التسمية لكونه مغايرا عن الابن والروح القدس، واستحق الابن هذه التسمية لتغايره عن الآب والروح القدس، كما استحق روح القدس هذه التسمية لكونه مغاير عن الآب والابن. وإذا ثبت هذا بطل قولهم إن الأشخاص الثلاثة شخص واحد وفي المرتبة نفسها، إذ لو كان الأمر كما يزعمون، لأمكن أن يسمى الآب ابنا، والابن روح القدس، وروح القدس آبا، وهم لا يقولون بذلك.

أما من جهة النقل، فيرجع ابن حزم إلى أناجيلهم، ويدعوهم إلى الإتيان بما يثبت دعواهم، خاصة وابن حزم لا تثبت عنده المسائل العقدية أصلا من جهة العقل، وإنما من جهة السمع فقط. والأناجيل بخلاف ما يزعمون، تنص على أن الآب غير الابن وروح القدس، والابن غير روح القدس، وروح القدس غيرهما. بل أكثر من ذلك تصف الأناجيل الابن بالنقص مقارنة مع الآب، وساق ابن حزم نصوصا من الأناجيل للتدليل على ذلك، كقولها على لسان المسيح: "سأقعد عن يمين أبي"[48]، وقوله: "إن القيامة لا يعلمها إلا الآب وحده"[49]، وهذا اعتراف منه أنه أقل علما ودرجة من الآب. وإذا كان الآب هو الابن، فهل سيقعد عن يمين نفسه؟ وهل يعلم ما لا يعلم؟

وبهذا يكون ادعاء القائلين بالتثليث غير مرتكز على دليل عقلي أو نص نقلي.

---

48 – لوقا 70:22

49 – متى 36:24

- دحض ابن حزم لبعض الأدلة المزعومة التي يوردها النصارى على صحة الادعاء بأن الله ثالث ثلاثة.

لم يكتف ابن حزم بالأدلة التي اشتهرت بين النصارى، بل تجاوزها وبحث عن كل الأدلة التي يستند عليها بعض النصارى للدفاع عن التثليث، ومحاولة إثباته خاصة من جهة العقل، ومن هذه الأدلة:

الدليل الأول: يورد ابن حزم دليلا أولا للنصارى على صحة ادعائهم أن الله ثالث ثلاثة، فيقول: "وقد لفق بعضهم أشياء لا معنى لها، إلا أننا ننبه عليها ليتبن هجنة قولهم وضعفه بحول الله تعالى وقوته، وذلك أن بعضهم قال: لما وجب أن يكون الباري تعالى حيا وعالما، وجب أن تكون له حياة وعلم، فحياته هي التي تسمى روح القدس وعلمه هو الذي يسمى الابن"[50].

وهذا الادعاء الذي ذكره ابن حزم هو ادعاء تقول به النسطورية فعلا، وتأكد لنا ذلك من خلال مقارنته مع ما جاء في أقوال إنبا إليا مطران نصيبين وأعماله النسطوري، المعروف بابن شينا أو ابن شني المتوفي سنة 1049م في مجالسه مع أبي القسم الحسين بن علي المغربي وزير الملك، مشرف الدولة البويهي المتوفي سنة 418هـ-1028م في الشرع وغيره، وقد أعدَّ إليا مطران نصبين هذه المجالس على شكل رسالة، وأرسل بها إلى أبي العلاء صاعد ابن سهل الكاتب وعددها في سبعة مجالس، يطلعه فيها على ما دار في هذه المجالس، وقد ذكر في المجلس الأول الذي كان حول التوحيد والتثليث قوله: "قلت قد اتفقنا على أن الله جوهر بمعنى القائم بنفسه، **وليس يخلو هذا القائم بنفسه أن يكون حيا أو غير، حي لأنه ليس شيء قائم بنفسه إلا هو إما حي وإما غير حي، ومن المحال أن يكون خالق الحياة ومحدث كل شيء ميتا غير حي. فنقول: إن الباري تعالى قائم بنفسه حي. ثم لا يخلو هذا القائم بنفسه الحي أن يكون ناطقا أو غير ناطق، لأنه**

50 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 113.

ليس حي إلا هو إما ناطق وإما غير ناطق، ومن المحال أن يكون خالف الناطقين غير ناطق، ومحدث النطق غير ناطق. فنقول: إن الباري تعالى قائم بنفسه حي ناطق.. وقولنا إنه ناطق بنطق وحي بحياة وإن نطقه هو كلمته وحياته روحه"[51].

وبالقول نفسه تقول الملكانية كما هو ثابت من قول بولس الراهب أسقف صيدا الملكاني الذي يقول: **"ورأينا الشيء ينقسم قسمين: شيء حي وشيء غير حي، فوصفناه بأجل القسمين فقلنا حي لننف الموتانية عنه، ورأينا الحي ينقسم قسمين: حي ناطق وحي غير ناطق، فوصفناه بأفضل القسمين فقلنا ناطق لننفي الجهل عنه"**[52].

ولعل ما يميز ابن حزم عن غيره من النقّاد المسلمين تثبته من مصادر مخالفيه، والنقل منها بأمانة، فما ذكره هنا عن الملكانية والنسطورية، غير بعيد عما وجدناه عندهم ونقلناه عن أحدي أعلامهم وهما إليا مطران نصيبين النسطوري وبولس أسقف صيدا الملكاني. مما يدل على أن ابن حزم كان كثير الاطلاع على مصادر المخالفين متمكنا منها، وملتزما بمنهجه المتمثل في عدم بخس حق خصمه، أو متقوِّلا عنه.

بعد سرد أقوال المخالفين بأمانة، ينتقل الإمام ابن حزم إلى الرد على أقوالهم، ومادام هؤلاء يزعمون أن أدلتهم مستمدة من العقل، فبالعقل أيضا يرد ابن حزم مزاعمهم، مُنبِّها على أن المسائل العقدية -كما ذكرنا من قبل- لا تثبت عنده إلا من جهة السمع، ولا سبيل لإدراكها بالعقل يقول ابن حزم: "وهذا من أغث ما يكون من الاحتجاج لأننا قد قدمنا أن الباري تعالى لا يوصف بشيء من هذا من طريق الاستدلال لكن من طريق السمع خاصة"[53]، ثم يستدرك عليهم

51 – مجالس ألبا مطران نصيبين، نشرها الأب لويس شيخو، مجلة المشرق كانون الثاني 1922

52 – بولس الراهب، ص: 17

53 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 113،

أن من جهة النقل أيضا ألا دليل على أن العلم يُسمّى ابنا بقوله: "ولا يصح لهم دليل لا من إنجيلهم ولا من غيره من الكتب إن العلم يسمى ابنا ولا في كتبهم إن علم الله هو ابنه"[54].

ثم لا يغفل عما يسعى إليه هؤلاء من محاولة الاحتجاج على صحة ما يقولون من كون اللغة اللاتينية يُعبر فيها عن الابن بالعلم. وهنا تجدر الإشارة إلى شساعة علم ابن حزم واطلاعه على اللغات التي دوِّن بها الكتاب المقدس والترجمات التي عرفها، والتي مكنته من دحض الاحتجاج باللغة اللاتينية على أنها لغة الإنجيل، يقول ابن حزم: "وقد ادعى بعضهم أن هذا تقتضيه اللغة اللاتينية إن علم العالم يقال فيه إنه ابنه. قال أبو محمد رضي الله عنه: وهذا باطل ظاهر الكذب، لأن الإنجيل الذي كان فيه ذكر الأب والابن وروح القدس، لا يختلف أحد من الناس في أنه إنما نقل عن اللغة العبرانية إلى السريانية وغيرها، فعبر عن تلك الألفاظ العبرانية وبها كان فيه ذكر الأب والابن وروح القدس، وليس في اللغة العبرانية شيء مما ذكر وادعى"[55]. وجزمه "أن ليس في اللغة العبرانية شيء مما ذكر وادعى" دليل على اطلاعه على هذه اللغة ومعرفته بها.

ثم يعود لاستعمال العقل مرة أخرى ليبين لهم أن طريقتهم في الاستدلال العقلي، تقتضي الانتقال من التثليث إلى التربيع وإلى التخميس إلى ما لا نهاية، مادام الله تعالى لا يتصف بصفة العلم والحياة فقط، بل بالقدرة أيضا، وهي صفة منصوص على عظمتها في رسائل بولس، وكذلك صفة السمع، والبصر، والكلام، والعقل، والحكمة، والجود، وهو ما عبَّر عنه بقوله: "وإن كانوا ممن يقولون بتسمية الباري عز وجل من طريق الاستدلال، فقد أسقطوا صفة القدرة، إذ ليس الاستدلال على كونه عالما، بأصح ولا أولى من الاستدلال على كونه قادرا، لا سيما مع قول بولس وهو عندهم فوق الأنبياء: إن المسيح قدرة الله

54 – نفسه، نفس الصفحة.

55 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 113.

وعلمه تعالى، قال هذا النص في رسالته الأولى إلى أهل قريته، فليضيفوا إلى هذه الثلاث، صفة رابعة وهي القدرة ،وأخرى وهي السمع، وأخرى وهي البصر، وأخرى وهي الكلام، وأخرى وهي العقل، وأخرى وهي الحكمة، وأخرى وهي الجود"[56].

وقد لاحظنا أن احتجاج ابن حزم هذا، احتجاج قديم سبقه إليه غيره من نقاد المسيحية، ولا ندري بالضبط عمن أخذه، ولكن الذي حملنا على القول إنه احتجاج مسبوق، ما وجدنا من ردود عنه، من قبل مسيحي عاش قبل ابن حزم وهو عمار البصري[57]، وقد اشتهر هذا الأخير بردوده عن انتقادات المسلمين للمسيحية، خاصة انتقادهم لعقائد التثليث والصلب والاتحاد والتجسد في كتابه البرهان، وقد جاء في رد عمار البصري هذا قوله: "فإن قال قائل فإذ قد أثبت لله الكلمة والروح، فقلت إنه وهما ثلاثة أقانيم، **فلم لا تثبت له أيضا سمعا، وبصرا، وحكمة، وعلما، وقدرة، وقوة، وعفوا، ومعرفة، ورحمة، وكرما، وجودا، ونعمة، وإرادة، وما أشبه ذلك جوهرية أيضا. فإنك كما أسميته حيّا ناطقا فأثبت له حياة وكلمة، كذلك سمّيته سميعا بصيرا، حكيما عليما، قادرا قويا، عفوّا غفورا، رحيما كريما، منعما مريدا، وما كان بذلك شبيها**"[58].

ويستمر ابن حزم في إيراد مختلف احتجاجاتهم "العقلية" ويرد عنها من جهة العقل أيضا، يقول: "فإن قالوا القدرة هي الحياة"[59]، وهو قول منقول عنهم حقيقة، وليس مجرد افتراض يفترضه ابن حزم، بدليل أن كل الأقوال التي نسبها

---

56 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 114،

57 – عاش عمار البصري في زمن الخليفتين العباسيين المأمون والمعتصم النصف الأول من القرن التاسع الميلادي

58 – البصري عمار، كتاب البرهان وكتاب المسائل، تحقيق ميشال الحايك، دار المشرق، بيروت، سلسلة بحوث ودراسات، مجموعة دراسات شرقية 5، ب. سلسلة جديدة الشرق المسيحي. ص: 52

59 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 114.

ابن حزم إلى النصارى، وجدناها في مؤلفات المسيحيين العرب الذين ذكرنا من قبل أمثال بولس أسقف صيدا، وإليا مطران نصيبين، والشيخ مومل بن عفيف وعمار البصري وغيرهم. ويردُّ عن هذا الزعم بقوله: "قيل لهم والعلم هو الحياة، فإن قالوا ليس العلم الحياة ،لأنه قد يكون حي ليس عالما كالمجنون، قيل لهم قد يكون حي ليس قادرا كالمغشي عليه ونحو ذلك، فالقدرة ليست الحياة. وأيضا فإن كان الابن هو العلم، وروح القدس هو الحياة، فما بال إقحامهم المسيح عليه السلام في أنه الابن وروح القدس، أترى المسيح هو حياة الله وعلمه؟ وما بال قول بعضهم: إن مريم ولدت ابن الله، أتراها ولدت علم الله؟ أيكون في التخليط أكثر من هذا؟ وهل حظ المسيح عليه السلام من علم الله وحياته، إلا كحظ غيره ولا فرق، وهذا لا مخلص منه وبالله التوفيق"[60].

ولا يكتفي ابن حزم بهذا، وإنما نجده يستقرئ أقوالهم، ويتتبعها في مختلف مصادرهم الموثوقة، فيقول: "وقال بعضهم لما وجدنا الأشياء قسمين حيا ولا حيا، وجب أن يكون الباري عز وجل حيا، ولما وجدنا الحي ينقسم قسمين: ناطقا وغير ناطق، وجب أن يكون الباري تعالى ناطقا"[61]، وقد رأينا أن هذا التقسيم المتبع من أجل الاستدلال على إثبات الحياة والكلام لله تعالى، قد ذكره كل من ذكرنا من النصارى العرب.

فهذا إليا مطران نصيبين النسطوري يقول: "**وليس يخلو هذا القائم بنفسه أن يكون حيا أو غير حي لأنه ليس شيء قائم بنفسه إلا هو إما حي وإما غير حي ومن المحال أن يكون خالق الحياة ومحدث كل شيء ميتا غير حي فنقول إن الباري تعالى قائم بنفسه حي ثم لا يخلو هذا القائم بنفسه الحي أن يكون ناطقا أو غير ناطق لأنه ليس حي إلا هو إما ناطق وإما غير ناطق ومن المحال أن يكون**

60 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 114.

61 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 114.

خالف الناطقين غير ناطق ومحدث النطق غير ناطق فنقول إن الباري تعالى قائم بنفسه حي ناطق.. وقولنا إنه ناطق بنطق وحي بحياة وإن نطقه هو كلمته وحياته روحه"[62]".

وبمثل قول إليا يقول بولس الراهب أسقف صيدا الملكاني: **"ورأينا الشيء ينقسم قسمين شيء حي وشيء غير حي فوصفناه بأجل القسمين فقلنا حي لننف الموتانية عنه، ورأينا الحي ينقسم قسمين حي ناطق وحي غير ناطق فوصفناه بأفضل القسمين فقلنا ناطق لننهي عنه الجهل عنه"**[63].

ثم يبيّن ابن حزم تهافت هذا الاستدلال بقوله: "وهذا الكلام في غاية الكلال لوجهين؛ أحدهما إن هذه القسمة قسمة طبيعية واقعة تحت جنس، لأنه إذا كان تسمية الباري تعالى حيا، إنما هو من هذا الوجه. فهو إذا يقع مع سائر الأحياء تحت جنس الحي، ويحد بحد الحي، وبحد الناطق، وإذا كان كذلك فهو مركب من جنسه وفصله، وكل ما كان محدودا فهو متناه، وكل ما كان مركبا فهو محدث. والوجه الثاني أن هذه القسمة التي قسموها منقوضة مموهة، لأنه يلزمهم أن يبدؤوا بأول القسمة الذي هو أقرب إلى الطبيعة، فيقولوا وجدنا الأشياء جوهرا ولا جوهرا، ثم يدخلوه تحت أي القسمين شاءوا، وهم إنما يدخلونه تحت الجوهر. فإذا أدخلوه تحت الجوهر، فقد وجب ضرورة أن يحدوه بحد الجوهر، فإذا كان ذلك وجب أن يكون محدثا، إذ كل محدود فهو محدث كما قد بيناه. ثم نعترضهم في قسمتهم من قبل أن يبلغوا إلى الحي الناطق، وعلى بعض القسم قبله يقع الثاني. وهذه كلها مخلوقات فلو كان الباري تعالى بعضها أو كانت هذه الصفات واقعة عليه من طريق وجوب وقوعها علينا، لكان مخلوقا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا"[64].

---

62 – مجالس أليا مطران نصيبين، نشرها الأب لويس شيخو، مجلة المشرق كانون الثاني 1922

63 – بولس الراهب، ص:17

64 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 114–115.

ب-نقد عقيدة الاتحاد:

بعد نقده لعقيدة التثليث ينتقل ابن حزم إلى ثاني كبرى العقائد المسيحية، وهي عقيدة الاتحاد، مبتدئا بذكر أقوال مختلف الفرق النصرانية في الاتحاد، وذلك في قوله: "وهم يقولون إن الإله اتحد مع الإنسان، يعني أنهما صارا شيئا واحدا، فقالت اليعقوبية: كاتحاد الماء يلقى في الخمر فيصيران شيئا واحدا. وقالت النسطورية كإتحاد الماء يلقى في الزيت، فكل واحد منهما باق بحسبه. وقالت الملكية كاتحاد النار في الصفيحة المحماة"[65].

وللتأكد مرة أخرى من هذه الأقوال التي نسبها ابن حزم إلى فرق النصارى الثلاث، ومعرفة إلى أي مدى تحرى الدقة فيما نقله عنها، رجعنا إلى كتابات النصارى العرب، فوجدنا بولس أسقف صيدا وهو يذكر أقوال الفرق النصرانية في الاتحاد يقول: "فنظرنا في الاتحاد فوجدناه يقال على ثلاثة أنحاء، منها اتحاد ظهوري، وهو اتحاد النار بالحديد، ومنها اتحاد مجاورة، كالزيت والماء في القنديل، ومنها اتحاد ممازجة، كالخل والعسل"[66].

ولا يختلف هذا التعريف الذي أعطاه بولس أسقف صيدا للاتحاد لدى الفرق النصرانية الثلاث كثيرا عما ذكره ابن حزم.

وأقرب إلى ما ذكره الإمام ابن حزم عن الاتحاد ما نقله إلينا الشيخ عفيف بن مومل في رسالته اللاهوتية لما ذكر أقوال الفرق النصرانية في الاتحاد قائلا بشأن الاتحاد عند الملكانية: "وإن الابن أي الكلمة اتحد اتحادا ظهوريا كاتحاد النار بالحديدة"[67]، أما معنى الاتحاد عند النساطرة فيقول عنه: "وأن اتحاد اللاهوت بالناسوت اتحاد مجاورة كمجاورة الزيت والماء في الإناء"[68]. أما عن

65 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص:116-117.

66 – بولس أسقف صيدا، ص: 89

67 – الشيخ مومل بن عفيف، ص: 917

68 – الشيخ مومل بن عفيف، ص: 922

معناه عند اليعاقبة فيقول: "وأن المسيح اتحد بأن امتزج اللاهوت بالناسوت فصارا سيئا واحدا"[69].

بعد ذلك انتقل ابن حزم إلى الرد على مجموع هذه الأقوال في عقيدة الاتحاد عند النصارى من جهة النقل أولا، فرجع إلى نصوصهم يستقرؤها ويبحث عما يدل فيها على هذه العقيدة، ليخلص أن نصوص الإنجيل لا تشير إليها البتة وهو قوله: "وكل هذا في غاية الفساد أول ذلك أنها ادعاء، ولا يعجز عن مثلها متحامق وليس في إنجيلهم شيء من هذه الأقسام"[70].

ثم ينتقل إلى بيان فساد ما اعتقدوا من جهة العقل، وذلك في قوله: "والثاني أنها كلها محال، لأن قول الملكية في تمثيلهم بما مثلوا، إنما هو عرض في جوهر، ولا يتوهم غير ذلك. فالإله على قولهم عرض والإنسان جوهر، وهذا في غاية الفساد. وقول اليعقوبية أفسد، لأننا نقول لهم إن كان استحال الإله إنسانا، فالمسيح إنسان وليس إلها. وإن كان الإنسان استحال إلها، فالمسيح إله وليس بإنسان. وإن كان كلاهما لم يستحل واحد منهما إلى الآخر، فهذا هو قول النسطورية لا قولهم. وإن كان كل واحد منها استحال إلى الآخر، فقد صار الإله إنسانا لا إلها، وصار الإنسان إلها لا إنسانا، وحصلوا بعد هذا الحمق على قول النسطورية ولا مزيد. ولإن كانا استحالا إلى غير الإنسان والإله، فالمسيح لا إله ولا إنسان، وكل هذا خلاف قولهم. وأما النسطورية فلم يزيدوا على أن قالوا إن الإنسان إنسان، والإله إله. وهكذا كل فاضل وفاسق في العالم هو إنسان، والإله إله. فالمسيح وغيره من الناس سواء. وأيضا فإن ما قالوه محال، لأن الذي لم يزل لا يستحيل إلى طبيعة الإنسان المحدث ولا يستحيل المحدث إلها لم يزل وهذا محال بذاته ممتنع لا يتشكك وكذلك الإنسان لا يجاور الإله مجاورة مكانية لأنه

69 – الشيخ مومل بن عفيف، ص: 924

70 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 117.

محال أيضا وكذا لا يتوهم ولا يمكن أن يكون الإله عرضا يحمله جوهر الإنسان ولا يمكن أن يكون الإنسان عرضا يحمله الإله في ذاته كما تدعى الملكية في تشبيه ذلك الإتحاد بضوء الشمس في البيت وبالنار في الحديدة المحماة فقد صح أن كل ما قالوا محال وباطل وسخيف لا يقبله إلا مخذول ولا يمكنهم إدعاء وجود شيء من هذا في كتب الأنبياء أصلا"[71].

بعد هذا ينبه ابن حزم خصومه من مختلف فرق النصارى إلى مسألة في غاية الأهمية تتعلق بموقع الكلمة من الثالوث عندهم، أهي من الثالوث أم خارجة عنه؟ أهي الآب أو الابن أم روح القدس أو شيء رابع، ثم يذكرهم بمضمون الأمانة، ومدى توافقه مع ما يقولونه في معنى الاتحاد: "وأيضا فإنهم يضيفون إلى ذكرهم الآب والابن وروح القدس شيئا رابعا وهو الكلمة وهي المتحدة عندهم بالإنسان الملتحمة به في مشيمة مريم عليها السلام"[72].

ثم يورد نص أمانتهم، والمقصود بالأمانة قانون الإيمان "النيقاوي" المصطلح عليه بالكلمة اللاتينية Credo والتي تعني: "أومن" الذي قرره مجمع نيقية يقول ابن حزم: "فإن أمانتهم التي اتفقوا عليها كلهم هي كما نورده نصا: نؤمن بالله الأب مالك كل شيء صانع ما يرى وما لا يرى وبالرب الواحد يسوع المسيح بكر الخلائق كلها وليس بمصنوع الإله حق من الإله حق من جوهر أبيه الذي بيده انفنت العوالم وخلق كل شيء الذي من أجلنا معشر الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار إنسانا وولد من مريم البتول وألم وصلب أيام قيطوش بلاطش ودفن وقام وفي اليوم الثالث كما هو مكتوب وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الأب وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق

71 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 117–118.

72 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 118.

الذي هو مشتق من أبيه روح محبة وبمعبودية واحدة لغفران الخطايا وبجماعة واحدة قدسية سليحية جائليقية وبقيامة أبداننا وبالحياة الدائمة إلى أبد الأبدين"[73].

وبمقارنة النص الذي أورده ابن حزم مع نص الأمانة المعتمد لدى النصارى اليوم، لا نجد فرقا كبيرا باستثناء بعض المصطلحات التي يرجع الاختلاف فيها إلى الترجمة لا غير.

ثم يأتي ابن حزم إلى إشكال آخر في العقيدة المسيحية، متعلق بمسألة التثليث، وهو علاقة الكلمة بالثالوث المكون من الآب والابن وروح القدس، ويتساءل عن موقع الكلمة من الثالوث، ويرجع في ذلك إلى إنجيل يوحنا باعتباره الإنجيل الرئيس في القول بالكلمة وأزليتها. يقول ابن حزم: "وقال في أول انجيل يوحنا التلميذ في البدء كانت الكلمة والكلمة عند الله والله كان الكلمة قال أبو محمد رضي الله عنه فهذه أقوال إذا تأملها ذو عقل علم أنها وساوس أو جنون ملقى من الشيطان لا يمتحن به إلا مخذول مشهود له ببراءة الله تعالى منه. ويقال لهم الكلمة هي الآب أو الابن أو روح القدس أم شيء رابع، فإن قالوا شيء رابع فقد خرجوا عن التثليث إلى التربيع، وإن قالوا إنها أحد الثلاثة؛ سئلوا عن الدليل على ذلك، إذ الدعوى لا يعجز عنها أحد."[74].

لا يغفل ابن حزم وهو يناظر النصارى عن المصطلحات التي يستعملونها ومعانيها اللغوية التي لا تستقيم وصفات الألوهية، ويقف مع مفهوم الالتحام عندهم واشتقاقهم للفظة من اللحم فيحتج قائلا: "ويقال أيضا هل معنى التحم إلا صار لحما، وهذا غير قول النسطورية والملكية"[75].

---

73 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 118.

74 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 118–119.

75 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 119.

أما بخصوص العلاقة التي تجمع مكونات الثالوث عند النصارى فيطرحها ابن حزم على النصارى متسائلا عنها، طالبا منهم توضيحها، وفي الآن نفسه مبيّنا بطلانها؛ يقول ابن حزم متسائلا ومعترضا: "ثم يقال لهم: الآب هو الإبن أم غيره؟ فإن قالوا هو غيره، سئلوا أيضا: من الملتحم في مشيمة مريم، المتحد مع طبيعة المسيح، الآب أم الابن؟ فإن قالوا الابن فقد بطل أن يكون هو الآب.، وخالفوا يوحنا، إذ يقول في أول إنجيله أن الكلمة هي الله والتحمت، فإذا كانت هي الله، والكلمة التحمت في مشيمة مريم، فالله تعالى هو نفسه التحم في مشيمة مريم، وفي أمانتهم أن الابن هو الذي التحم في مشيمة مريم، وهذه وساوس لا نظير لها."[76]

وفي كل مرة يعود ابن حزم إلى النص الإنجيلي للاحتجاج على النصارى، إذ كما نص على ذلك من قبل يعدّه الدليل الوحيد على العقائد، ولا يستدل على هذه الأخيرة إلا بالسمع ولا مجال للعقل في ذلك، فيقول: " وإن قالوا: بل الآب، فقد بطل أن يكون هو الابن، وخالفوا يوحنا والأمانة. وإن قالوا هو الأب وهو الابن، تركوا قولهم: إن الابن يقعد عن يمين أبيه، وأن الأب يعلم وقت القيامة والابن لا يعلمها، وقولهم في إنجيل يوحنا: الأب فوض الأمر إلى ابنه، والأب أكبر من الابن، فهذه نصوص على أن الابن غير الأب، إذ لا يقعد المرء عن يمين نفسه، ولا يفوض الأمر إلى نفسه، ولا يجهل ما يعلم، وهذا كله يبطل قولهم: إن الابن هو العلم والقدرة أو غير ذلك، لأن هذه الصفات لا تقعد عن يمين حاملها، ولا يفوض إليها شيء، وإن قالوا لا هو هو، ولا هو غيره، دخل عليهم من الجنون ما يدخل على من ادعى أن الصفات لا هي الموصوف ولا هي غيره، وإن قالوا الأب هو الابن وهو غيره، لم يكن ذلك ببدع من سخافاتهم وخروجهم عن المعقول، ولزمهم أن الابنَ ابنٌ لنفسه، وأب لنفسه، وأن الأب أب لنفسه، وابن لنفسه. وليس في الحمق والهوس أكثر من هذا"[77].

---

76 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 119.

77 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 119–120.

ثم يعود ابن حزم إلى استدلالهم ببعض نصوص الكتاب المقدس على دعواهم ليبيّن أنها لا تدل على ما يزعمون صراحة، وأنهم يأولونها تأويلات بعيدة، وقد اشترط ابن حزم في مقدمة كتابه على أنه لن يحتج على مخالفيه بنص يحتمل تأويلا ولو كان بعيدا، وكذلك يردّ الاحتجاج بكل دليل محتمل، وهو الاعتراض الذي يعترض عليهم لما استدلوا بنصوص من الزبور وإشعيا على ألوهية المسيح، يقول ابن حزم: "ولا متعلق لهم بشيء مما في الزبور ولا في كتاب شعياء وغيره، لأنه ليس في شيء منها أن المراد بما ذكر هنالك هو عيسى بن مريم عليهما السلام."[78]

بل يسوق ابن حزم نصوصا قطعية لا تحتمل التأويل تدل على نبوته وبشريته من أناجيلهم في قوله: "وقد قال لوقا في آخر انجيله أنه كان نبيا مقتدرا عبد الله وهذا كله بين عظيم مناقضتهم وما توفيقنا إلا بالله فإن تعلقوا بما في الإنجيل من ذكر المسيح أنه ابن الله قيل لهم في الإنجيل أيضا أبي وأبيكم الله إلهي وإلهكم وأمرهم إذا دعوا أن يقولوا يا أبانا السماوي فله من ذلك كالذي لهم ولا فرق"[79].

أما الاستدلال على الألوهية بما قام به المسيح من معجزات خارقة فاستدلال مرفوض وغير صحيح عند ابن حزم ويبيّن ذلك قائلا: "فإن قالوا أنه أتى بالعجائب، قيل لهم: والحواريون أيضا عندكم أتوا بالعجائب، وموسى قبله، وإلياس، وسائر الأنبياء قد أتوا بمثل ما أتى به، من إحياء الموتى وغيره. فأي فرق بينه وبينهم على أنه ليس في شيء من الإنجيل نص الأمانة التي لا يصح الإيمان عندهم إلا بها من ذكر أب وابن وروح القدس معا وسائر ما فيها وإنما تقليد لأسلافهم من الأساقفة ونعوذ بالله من الخذلان"[80].

78 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 120.

79 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 120.

80 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 120.

بعد هذا يؤكد ابن حزم أن دعوى ألوهية المسيح ليس مصدرها الأناجيل وإنما ما يصطلح عليه المسيحيون بقانون الإيمان النيقاوي، أو على حد تعبيره قانون الأمانة، فينتقل لمناقشتهم في ذلك، يقول ابن حزم: "وأمانتهم التي ذكروا أنهم متفقون عليها موجبة أن الابن هو الذي نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار إنسانا وقتل وصلب، فيقال لهم هذا الابن الذي في أمانتكم أنه نزل من السماء، أمخلوقا كان أو غير مخلوق بل كان لم يزل؟ فإن قالوا كان مخلوقا، فقد تركوا قولهم، لا سيما إن قالوا ليس هو غير الأب، بل يصير الأب وروح القدس مخلوقين، وإن قالوا كان قبل أن ينزل غير مخلوق، قيل لهم فقد صار مخلوقا إنسانا، وهذا محال وتناقض. وأيضا فقد لزم من هذا أن الابن مخلوق وروح القدس مخلوق، إذ صار إنسانا. ثم يقال لهم أخبرونا عن هذا الابن الذي أخبرتم عنه بما لم تخبروا عن الأب، والذي يقعد عن يمين الرب، ثم ينزل لفصل القضاء، أله علم وحياة أم لا علم له ولا حياة؟ فإن قالوا لا علم له ولا حياة، فارقوا إجماعهم، ولزمهم ضرورة إن قالوا مع ذلك أنه غير الأب الذي له حياة وعلم، إذ ما لا علم له هو بلا شك غير الذي له علم، والذي لا حياة له هو بلا شك غير الذي له حياة. وهذا ترك منهم للنصرانية. وإن قالوا بل له علم وحياة لزمهم أن الأزليين خمسة: الأب وعلمه وحياته، والإبن الذي هو علم الأب وعلمه وحياته. وهكذا يسألون أيضا عن روح القدس ولا فرق"[81]. ونلاحظ أن مناقشة ابن حزم لهم هنا مناقشة عقلية محظة لما تضمنته نصوصهم سواء الإنجيلية، أو ما نصت عليه أمانتهم العقدية.

ثم إن ابن حزم يرى أنه كما يستدل بالإنجيل على ألوهية المسيح وبنوته لله، يمكن الاستدلال أيضا من الإنجيل عن بنوة كل الناس لله تعالى وإلا فصاحب هذا الإنجيل كاذب لا يعتد بإنجيله، يقول: "وقد قال يوحنا في أول انجيله فمن

81 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 121.

تقبله منهم وآمن به أعطاهم سلطانا أن يكونوا أولاد الله أولئك المؤمنون بإسمه الذين لم يتوالدوا من دم ولا شهوة اللحم ولا باه رجل ولكن توالدوا من الله فصح بهذا أن لكل نصراني من ولادة الله والأزلية والكون من جوهر الأب كالذي للمسيح سواء بسواء ولا فرق وإلا فقد كذب يوحنا اللعين قائل هذا الكفر وأهل الكذب هو وهذا ما لا انفكاك منه".

ج- نقد عقيدة الصلب:

أول ما يبدأ به ابن في نقده عقيدة الصلب، دعوى يحتج بها النصارى على المسلمين تتمثل في كونه مسألة صلب المسيح مسألة متواترة عندهم، وتكذيبها تكذيب لنقل الكواف، ولما كان دين المسلمين قائم على التواتر ونقل الكواف فالطعن في صلب المسيح طعن في نقل الكزاف وطعن في دين الإسلام. ولهذا يقف ابن حزم مع هذا الإدعاء وإبطاله من أصله، يقول ابن حزم: "ومما يعترض به علينا اليهود والنصارى ومن ذهب إلى إسقاط الكواف من سائر الملحدين إن قال قائلهم قد نقلت اليهود والنصارى أن المسيح عليه السلام قد صلب وقتل، وجاء القرآن بأنه صلى الله عليه وسلم لم يقتل ولم يصلب، فقولوا لنا كيف كان هذا؟ فإن جوزتم على هذه الكواف العظام المختلفة الأهواء والأديان والأزمان والبلدان والأجناس نقل الباطل، فليست بذلك أولى من كافتكم التي نقلت أعلام نبيكم وشرائعه وكتابه، فإن قلتم اشتبه عليهم فلم يتعمدوا نقل الباطل، فقد جوزتم التلبيس على الكواف، فلعل كافتكم أيضا متلبس عليها، فليس سائر الكواف أولى بذلك من كافتكم، وقولوا لنا: كيف فرض الإقرار بصلب المسيح عندكم قبل ورود الخبر عليكم، ببطلان صلبه وقتله، فإن قلتم كان الفرض على الناس الإقرار بصلبه، وجب من قولكم الإقرار إن الله تعالى فرض على الناس الإقرار بالباطل، وأن الله تعالى فرض على الناس تصديق الباطل والتدين به، وفي هذا ما فيه. وإن قلتم كان الفرض عليكم الإنكار لصلبه، فقد أوجبتم أن الله تعالى فرض على الناس تكذيب الكواف، وفي هذا إبطال قول كافتكم، بل إبطال

جميع الشرائع، بل إبطال كل خبر كان في العالم عن كل بلد وملك ونبي وفيلسوف وعالم ووقعتم وفي هذا ما فيه"[82].

بعد عرض أقوال النصارى في مسألة نقل الكواف بدأ ابن حزم في رد اعتراضهم مركزا على كون التواتر غير متحقق في من نقلوا مسألة صلب المسيح ممن حضروا حادث الصلب، وقبل ذلك يعرّف مفهوم التواتر ويبيّنه، "قال أبو محمد رضي الله عنه هذه الإلزامات كلها فاسدة في غاية الحوالة والإضمحلال بحمد الله تعالى. ونحن مبيّنون ذلك بالبراهين الضرورية بيانا لا يخفى على من له أدنى فهم بحول الله تعالى وقوته. فنقول وبالله التوفيق: إن صلب المسيح عليه السلام لم يقله قط كافة ولا صح بالخبر قط، لأن الكافة التي يلزم قبول نقلها، هي: إما الجماعة التي يوقن أنها لم تتواطأ لتنابذ طرقهم وعدم التقائهم وامتناع اتفاق خواطرهم على الخبر الذي نقلوه عن مشاهدة أو رجع إلى مشاهدة ولو كانوا اثنين فصاعدا، وإما أن يكون عدد كثير يمتنع منه الاتفاق في الطبيعة على التمادي على سنن ما تواطؤا عليه، فأخبروا بخبر شاهدوه ولم يختلفوا فيه. فما نقله أحد أهل هاتين الصفتين عن مثل أحدهما، وهكذا حتى يبلغ إلى مشاهدة. فهذه صفة الكافة التي يلزم قبول نقلها ويضطر خبرها سامعها إلى تصديقه، وسواء كانوا عدولا أو فساقا أو كفارا، ولا يقطع على صحته إلا ببرهان."[83]

بعد هذا التعريف الدقيق للتواتر وشروطه، ينظر ابن حزم في قضية نقل خبر صلب المسيح، هل يخضع لشروط التواتر، "فلما صح ذلك نظرنا فيمن نقل خبر صلب المسيح عليه السلام، فوجدناه كواف عظيمة صادقة بلا شك في نقلها جيلا بعد جيل إلى الذين ادعوا مشاهدة صلبه، فإن هنالك تبدلت الصفة، ورجعت إلى شُرط مأمورين مجتمعين، مضمون منهم الكذب، وقبول الرشوة على قول الباطل، والنصارى يقرون بأنهم لم يقدموا على أخذه نهارا خوف

82 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 122.

83 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 123.

العامة، وإنما أخذوه ليلا عند افتراق الناس عن الفصح، وأنه لم يبق في الخشبة إلا ست ساعات من النهار، وأنه أنزل أثر ذلك، وأنه لم يصلب إلا في مكان نازح عن المدينة، في بستان فخار متملك للفخار، ليس موضعا معروفا بصلب من يصلب، ولا موقوفا لذلك، وأنه بعد هذا كله رُشِيَ الشرط على أن يقولوا أن أصحابه سرقوه، ففعلوا ذلك، وأن مريم المجدلانية، وهي امرأة من العامة، تقدم على حضور موضع صلبه، بل كانت واقفة على بعد تنظر. هذا كله في نص الإنجيل عندهم، فبطل أن يكون صلبه منقولا بكافة، بل بخبر يشهد ظاهره، على أنه مكتوم متواطأ عليه. وما كان الحواريون ليلتئذ بنص الإنجيل إلا خائفين على أنفسهم، غُيَّباً عن ذلك المشهد، هاربين بأرواحهم، مستترين. وإن شمعون الصفا غرر ودخل دار قيقان الكاهن أيضا بضوء النهار، فقال له أنت من أصحابه، فانتفى وجحد، وخرج هاربا عن الدار. فبطل أن ينقل خبر صلبه أحد تطيب النفس عليه أن تظن به الصدق، فكيف أن ينقله كافة. وهذا معنى قوله تعالى: "ولكن شبه لهم" إنما عنى تعالى أن أولئك الفساق الذين دبروا هذا الباطل وتواطؤا عليه، هم شبهوا على من قلدهم، فأخبروهم أنهم صلبوه وقتلوه وهم كاذبون في ذلك، عالمون أنهم كذبة، ولو أمكن أن يشبه ذلك على ذي حاسة سليمة، لبطلت النبوات كلها، إذ لعلها شبهت على الحواس السلمية، لو أمكن ذلك لبطلت الحقائق كلها، ولأمكن أن يكون كل واحد منا يشبه عليه فيما يأكل ويلبس وفيمن يجالس وفي حيث هو، فلعله نائم أو مشبه على حواسه، وفي هذا خروج إلى السخف وقول السوفسطائية والحماقة"[84].

4- خاتمة

لم يكن هدفنا في هذا البحث هو مدى توفق ابن حزم في نقده لعقائد النصارى، وإن كان قد تمكن من ذلك فعلا، وإنما كان هدفنا الأساس الوقوف مع منهجه، ومعرفة مدى التزامه بما ألزم به نفسه، من إنصاف للمخالف، وعدم

84 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج/1، ص: 124.

بخسه حقه في الدفاع عن معتقداته، وهل كان أمينا في النقل عن المخالفين، يرجع إلى مصادرهم الموثوقة وأقوال علمائهم المعتمدة، أم كان متقولا عنهم ومفتريا عليهم.

وأظن أننا في عملنا هذا قد بيّنا أن الرجل كان أمينا في النقل، منصفا في الرد، مناقشا لأدلة الخصم محتكما معه إلى ما يؤمن به من نصوص مقدسة، أو إلى العقل باعتباره قوة مشتركة صالحة للحكم عن صحة القضايا أو بطلانها، وقد قارنا من أجل ذلك ما نقله من الأقوال عن المخالفين مع ما ورد في كتبهم، وما سطره علماؤهم في تآليفهم، وأثبتنا ريادة ابن حزم واستحقاقه لصفة رائد علم مقارنة الأديان بلا منازع قديما وحديثا.

ولعل تفوق ابن حزم دون غيره يرجع بالأساس إلى موسوعيته وعلمه الواسع، باعتباره عالما أصوليا وفقيها ومحدثا ومناظرا ومجادلا، بل أيضا باعتباره مؤرخا ولغويا وشاعرا وفيلسوفا وأديبا، واستفاد من كل هذه العلوم في ردوده على المخالفين، وسيتجلى لنا فيما سيأتي من البحوث التي سننجزها عن هذا العلم الكبير تمكنه من شتى المناهج، واستفادته من كل معارفه في العلوم التي ذكرنا، خاصة عندما سنقف معه في نقده للكتب المقدسة، واستفادته في ذلك من منهج المحدثين في الجرح التعديل.